محمود السعدنى

السعلوكى في بلاد الأفريكى



دار الهلال

محمود السعدنى

السعلوكى فى بلاد الأفريكى

●

دار الهــــلال

الغلاف بريشـــة
الفنان : طوغان

السعلوكى .. والصعلوكى

فى البداية.. وأنا راكب فى الطيارة الروسى الضخمة كما عمارة روزاليوسف، تعبر بالعبد لله بحر الرمال الواسع الشاسع الذى ليس له برور، قاطعة قارة الثروات والثورات أفريقيا أمنا وحبنا، فى هذه اللحظة بالذات وأنا ألقى نظرة خائفة من ارتفاع عشرة كيلو مترات على الصحراء الافريقية الكبرى، وأبخرة تتصاعد وتندفع مع الريح على وجه الرمال المحرقة، والشمس فوق فى العلالى، كما فرن بلدى مولع منذ عديد من الأزمنة.

والجو فى الطيارة حر يشوى الوجوه والجلود رغم الضغط وتكييف الهوا.. فى هذه اللحظة بالذات قررت تغيير اسم السلسلة التى أنوى كتابتها من الصعلوكى فى بلاد الأفريكى.. إلى السعلوكى فى بلاد الأفريكى.. ذلك لأن هناك فارقا عميقا بين المعنيين!.. فالصعلوك كلمة عربية فخيمة لها رنين.. كان العربى يتصعلك عندما تزجره القبيلة التى ينتمى إليها.. تطرده من ديارها وتطارده كما الكلب الجربان وتهدر دمه فيصبح كما وحش فى الصحراء من يلقاه يقتله وله الأجر والثواب عند الله! وكان الصعلوك من دول إذا قرر أن يتصعلك سحب هراديبه ودووايته معا.. فقد كان أغلبهم شعراء.. وسار متخفيا فى الليل.. يضرب وحيدا فى الصحراء حتى يلقى صعاليك أمثاله فيصبح واحدا منهم، يشتمون الناس ويسبون الأقربين والأبعدين.. يسطون على القوافل ليس من باب السرقة ولكن من باب الشقاوة والمزاج.. وهكذا أصبح الصعاليك وصف تحقير للمتمردين من أبناء القبائل. فالشخص يتصعلك أى يتمرد.. أى يثور.. فهم ثوار ولكن بلا ثورة، وقواد بلا جيوش، وأصحاب نظرة اجتماعية من غير مجتمع، واشتهر من بينهم كثيرون ربما لو تأخر بهم الزمان إلى زمن آخر قريب لصار لبعضهم شأن فى الفن، ولصار لبعضهم شأن فى الخطف.. فلقد كان من بينهم فنانون مثل عروة وتأبط شرا. وكان من بينهم حرامية ولا المرحوم الخط: من بينهم دبيب.. لأنه كان إذا سار على الرمال دب كأنه بقرة سمينة تستحق الحلب!

الصعلوكى إذن لا تنطبق على العبد لله.. ها أنذا راكب فى طيارة ولا عمارة روزاليوسف أنيقة كما المركب ايزيس مريحة كما سيارة رولزرويس، أمان ولا بيت على الأرض! صحيح ليس فيها ليموناده، وليس فيها شيكولاته.. والأكل فيها بعيد عن السامعين، ولكن فيها الشئ المهم والأهم، هو أنك تركب فيها وأنت واثق ابن واثق أنك نازل منها بإذن الله على وش الأرض.. وانك لو قدر لك الموت فيها فستموت بالسكتة أو بالجلطة أو بالجوع!

أنا إذن راكب مجعوص على كرسى جلد منفوخ محشو بريش النعام أو لعله ريش الطاووس، وتكييف الهوا شغال، وفى يدى جريدة وبين أصابعى سيجارة وفى جيب بنطلونى ولاعة رونسون آخر طراز لهفها منى واحد صديق الله يسامحه ويرحم والديه.. وفى جيب جاكتتى عملة صعبة، جنيه استرلينى على دولار أمريكى على فرنك سويسرى، وحالتى بمب والأشيا عال وكل شئ على ما يرام.. ومع ذلك فأنا خائف كحرامى، مرتعد ككلب مبلول، مذعور كفأر مسلوخ عكمته قطة براها الجوع! انظر بحسد إلى الصحراء الكبيرة تحت منى أتمنى لو كنت واحدا من رجال الطوارق سارح بجملى فى النهارأقطع بحر الرمال الشاسع الواسع على مهلى، أفكر أحيانا وأشعر أحيانا وأسرح أحيانا.. ولكن قلبى مطمئن انه مهما طال الزمن فأنا حتما واصل بإذن ربى! لماذا العجلة التى هى من الشيطان؟ حكمة أجدادى الأزلية والأبدية.. كأنهم كانوا يقرأون الغيب، كأنهم كانوا ـ عندما نطقوها ـ يفتحون المندل، العجلة من الشيطان، أى عجلة.. عجلة بسكليت، عجلة موتوسيكل، عجلة لورى، عجلة ترماى، عجلة طيارة، المهم لا تركب عجلة وأركب الصعب، فالعجلة ما أخطرها لأنه ما أغدرها! ليس أعظم من القدم مركوبا مأمونا بإذن ربى وأركب قدما فأنت واصل فى أمان الله، قدم حمار حصاوى، قدم جمل هجين ، قدم حصان سيسى، المهم قدم والسلام، وقد يقول قائل: ما قولك دام فضلك تركب قدمك فليهفك ترام أو يدوس عليك تروللى باس أو يمسح بك الشارع أوتوبيس؟ وجوابى على هذا السائل الفاضل أن الذى قتلك ليس قدمك ولكنها العجلة ..والعجلة من الشيطان، وويل لك إذا ركبت العجلة وويل لك إذا ركبت العجلة

عليك!! أنا خائف إذن فأنا لست صعلوكا لأن الصعلوك متمرد والمتمرد لا يخاف! أنا لست صعلوكا إذن من أكون؟ ليس فى اللغة العربية كلمة تنطبق على حالى. ولكن الست والدتنا نحتت كلمة فى العربية تستحق أن تدخل فى القاموس.. ولو ذاعت وشاعت لاستحقت أمى عنها حق أداء علنى كما الشاعر الغنائى مأمون الشناوى، كانت أمى تطلق على الصايع المشاغب كلمة شضلى.. وعلى الصايع المسالم كلمة سعلوك.. ليس أفضل من سعلوك تطلق على العبد لله فى مثل هذا الموقف.. وهى كلمة ذكية لم تكلف أمى إلا تغيير حرف واحد فقلبت المعنى رأسا على عقب. السعلوك إذن هو صعلوك، ولكن بالمقلوب. السعلوك هو صعلوك مقلوب زرع بصل. والسعلوك صعلوك ولكن غلبان، صعلوك ولكن مسالم، صعلوك ولكن فى طيارة روسى جبارة تعبر بحر الرمال الواسع الشاسع إلى قلب افريكيا. السعلوك صعلوك ولكن اسمه محمود السعدنى..

أنا صعلوك إذن ولكننى سعلوك وخائف جدا.. درجة خوفى وأنا فى الطيارة تجعلنى أبحث عن وصف آخر غير السعلوك، ولكن فى ساعة الخوف لا يحسن الانسان التفكير الحسن!.. إذن يكفى جدا إضافة حرف الياء على السعلوك لأصبح سعلوكى، وهى كلمة تؤدى المعنى تماما، فأنا سعلوك أى أنا سعلوك خائف خوف الإبل، ولو كان زكريا الحجاوى معى فى الطائرة أو الخميسى أو محمد علوان لأضفت على الكلمة واو ونون فتصبح سعلوكون، لأن كلا منهم جمع سعلوك!. ولو كان معى واحد منهم فى الطائرة لمات فيها قبل أن نعبر الصحراء الواسعة من شدة الرعب الأزلى!.

ما علينا.. فقد انتهت الفذلكة التاريخية حول صعلوكى وسعلوكى، وأنا الآن فى طريقى إلى أفريكيا، أنا السعلوكى كما اتفقنا، ومعى كتاب عن أفريكيا، وفى رأسى أوهام عنها.. وفى جيبى شهادات تطعيم تكفى قبيلة لاتجنب شرور وحرور أفريكيا، شهادة تطعيم ضد الحمى الصفراء، وشهادة ضد الجدرى، وشهادة ضد الزهرى، وشهادة ضد أمراض أخرى كثيرة لم أسمع بها ولم أسمع عنها من قبل! وأنا والحق أقول أعبر بحر المانش ولاتنغرز فى بدنى إبرة، أنا أخاف الحقن كما

يخاف الطفل من أبو رجل مسلوخة!. ولذلك فكرت أن أتمرد، هممت أن أصبح صعلوكا فلا أتناول حقنة ولا شهادة وأركب الطائرة وأتوكل على الله !..

هذا التخويف الشديد جعلنى أرتاب فى الأمر ، هل أفريقيا ثورة أمراض فتاكة؟ وميكروبات عضاضة والداخل فيها مفقود والخارج منها مولود بإذن الله ! هل صحيح أن فيها بعوضة تلبد فى جسم الواحد لا تتركه إلا إذا مصت دمه؟ وذبابة إذا لطشت النفر منا نام .. وارتمى بين الظلام على رأى كامل الشناوى؟ هل فيها سحلية إذا عكشت فى ساق راجل لا تتركه إلا فى قرافة الإمام ؟ .. وهل فيها عقارب صفراء إذا هرشت سخص من السخوصة أمثالى فيارحمة ربى عليه .

طيب لو كانت أحراش أفريقيا كلها عقارب وأنهارها كلها تماسيح ، وأعشابها تحت منها سحالى ، وجوها كله بعوض وذباب قاتل .. إذن كيف ذهب الأخ ستانلى والأخ ليفنجستون؟.. وكيف سافر اليها أول رجل أبيض فى الزمن الغابر البعيد؟ ينهب منها ذهبا أصفر وعاجا أبيض ويخطف منها رجالا كالورد، ويبيع للآخرين خرزا ملونا وصفيحا يشخلل وأشياء بلا قيمة ومن سقط المتاع!.

هل حصل ستانلى على شهادة تطعيم ضد الجدرى؟ هل تناول حقنة ضد الحمى الصفراء؟.. إذن كيف ذهب وعاش هناك وتزوج ونسل وفتح بوابة أفريقيا لكل آفاق ولكل خطاف ولكل عابر سبيل ابيض، نهبوها أولاد الهرمة وخطفوا كنوزها وسفوا خيراتها وأغلقوها فى وجوهنا، وخوفونا ولا أطفال نخشى البعبع.. وقالوا حذار أن تذهبوا إلى افريكيا ففيها بعابع تأكل الناس همهم! فيها عفاريت زرق تشفط الدم من الأبدان.. يا ماما!.. وفيها أمراض تفتك بالناس ولا فتك القنابل الذرية!

وصدقنا الحكاية وانبسطنا وقعدنا فى حدودنا نذهب إلي أوروبا ولا نذهب إلى أفريكيا .. ونتصرمح فى لندرة واللندناوى يشتغل فى أكرا .. ونسهر فى باريس والباريسى أبو مونبارناس يسهر الليل فى كونكرى، وهم يشفطون فلوس افريكيا فى السر وعلى المهل، ونحن نذهب إليهم نفرغ جيوبنا عندهم ونعود! حكمة الله

اننى فيلسوف ولكن حكمة الله أيضا اننى خواف، عقلى يرفض حكاية البعوض والذباب والسحالى، وقلبى يتنطط كفرخة فى يد جزار مدرب، ولكن لأننى سعلوكى أصيل امتثلت للخوف، مددت ذراعى لتندب فيه أكثر من إبرة، وفتحت فمى لابتلع أكثر من حباية وأكثر من سفّه، وملأت شنطتى بحبوب للملاريا وحبوب للكوليرا وقطرة للعين، وباستيليا للزور ودهان لجلد الانسان وبودرة للرش بعد الحموم.. وتوكلت على الله وارتديت سروال منوفى طويل لسببين، السبب الأول جغرافى فساحل افريقيا الغربى يعيش الآن فى الشتاء، ومادام هناك شتاء فلابد أن هناك بردا، وما دام هناك برد فما أحلى السروال الطويل فى ليالى الشتاء!..

والسبب الثانى حداقة وتفتيح عين من العبد لله!.. فهذا السروال الطويل سيحمينى من البرد، وسيحمينى أكثر من لسع البعوض.. أى بعوضة ولو كانت افريقية صحيحة لا يستطيع خرطومها اختراق هذا القماش المحلاوى المتين، وأى عقربة ولو كان زبانها فى حدة لسان العبد لله فلن تستطيع لكشى ولا هرشى.. سيقف زبانها عند السروال وكان الله يحب المحسنين!..

وارتديت فانلة بكم طويل كريشة اشتريت منها دستة من سمعان برخص التراب.. وأخذت معى بطارية أكشف بها طريقى وسط الدروب الضيقة فى الغابة الكثيفة، واسترشد بها وسط الأحراش التى تخفى الثعابين فى كل خطوة واستضىء بها وأنا اتمدد على السرير لعل ثعبانا ثقيل الدم يحاول الهزار السخيف معى وأنا نائم متمدد.. وسحبت على رأسى برنيطة معدن.. فضة، لامعة ولا سرير السلطانة الوالدة كان قد أوصانى بها صديقى عبدالحميد حمدى مدير مطافى شركة شل، قال انها: تعكس الشمس الحارقة وتردها إلى الفضا البعيد. وأنها البرنيطة الوحيدة والأكيدة لتعود لنا سالما غانما من رحلتك إلى أفريكيا، وصديقى عبدالحميد هاوى حريقة حتى أنه بالنسبة للحريقة كما قيس للست ليلى وحتى أصبح من شدة حبه وغرامه للنار ان الناس فى السويس شطبوا اسمه وأطلقوا عليه اسم عبدالحميد حريقه، وليس أسعد منه فى الدنيا بهذا الاسم الرومانسى حلو اللذيذ!.

المهم.. إننى دخلت الطيارة كفارس من فرسان العصر الوسيط فى طريقى إلى غزوة فى سبيل الامبراطور شاهبور! لم يكن ينقصنى إلا كمامة لأصبح مستوظفا فى مصلحة الوقاية المدنية من أخطار الغارات والغازات والموت السريع! لم أنس أيضا أن أحصل سرا على مطوة مسنونة لاستخدامها إذا حدثت غارة على العبد لله وأنا فى البرارى البعيدة. شئ واحد نسيته هو القردة شيتا لأصبح مثل الأخ العزيز طرزان. ليس السبب هو عدم وجود قرود فى القاهرة ولكن لسبب آخر هو السخص الذى هو أنا، فسأصبح مسخة ومضحكة إذا خلعت هدومى وسط البرارى والأحراش. فالأخ طرزان له بزاز ولا بزاز عمنا تايسون . وله شعر مسبسب ولا شعر المطربة لطيفة . وله جعورة ولا كبير مشجعى النادى الأهلى . وأنا لو خلعت هدومى وبانت عظامى وضلوعى وجلدى وشغتى فستطمع فى العبد لله ليس الوحوش الكاسرة ولكن الوحوش الضعيفة. ستهاجمنى السحالى والضفادع وقد تهاجمنى الفئران أيضا، فأنا بالنسبة لهؤلاء جميعا فرصة العمر ليحرزوا نصرا على ضعف البنى آدم يتغنى به شعراء السحالى والضفادع من هنا وإلى يوم أن تقوم القيامة!! أنا داخل تروسى ودروعى أصبح بقيمتى، وقد ينطلى الزور على الحيوان البرئ فيظننى واحدا من فصيلة طرزان ولكن على سبيل العينة! وأنا وكل الناس الطيبين من أبناء جيلى لا أظن أنهم تلقوا معلوماتهم عن افريقيا إلا بين جدران سينما مترو، عمك طرزان ممشوق القوام كنخلة، بارز العضلات كخوابير مصلحة المجارى، وشعر صدره يصلح باروكة لمذيعة فى التليفزيون العربى. وعيناه تضربان شرارا، وقبضته تقتل أسدا، وشيتا وراءه خدّامة مطيعة!! والافريكى طويل وهايف، عريان كما ولدته أمه، غبى كحمار الوحش، جبان كما سعلوكى، وتعابين جبارة تسرح فى الليل البهيم ولكن مطوة طرزان لها بالمرصاد، وفهود غدارة تشمشم حول الخيمة ولكن قبضة طرزان تطرحها أرضا، وجحافل من بشر افريكيا تهجم عليه ولكنه بصرخة واحدة يبدد الجحافل والقوافل ويقفز من شجرة إلى شجرة ويغطس فى البحيرة ليظهر فوق قمة جبل مهجور.

هـذه افريكيا سينما متـرو، وأنا طرزانها، ومن باب التواضع.. ترزانها، ينقصنى الآن مخرج وكاميرا لنكسب ملايين الجنيهات، وأصبح نجمة ولا استروليامز!

ورغم أنى طفت بعدد كبير من بلاد أفريكيا من قبل، إلا أن محاضرات سينما مترو لم تخرج من دمغاى، أنا مثلا مسحت الشاطئ الشمالى الأفريكى كله، أخذتها بسلام الله من طنجة إلى مليلة الى تلمسان الى الجزائر إلى تونس إلى طرابلس إلى الأسكندرية، وتوغلت داخل افريكيا إلى الخرطوم. ولكن خبراء افريكيا الكبار أكدوا لى جميعا أن افريكيا العربية غير أفريكيا السوداء، وإن علماء الأفريكولوجيا يقسمون افريكيا إلى قسمين، أفريكيا الشاطئ الشمالى وأفريكيا ما وراء الصحراء. وان السينما الامريكية لم تسجل الا نقطة فى بحر، ولم تظهر الا قليلا من كثير. وقالوا اذهب إلى هناك وسترى العجب العجاب، سترى مناظر لا يمكن تسجيلها بالكاميرا، ورجالا كالمردة لا تستطيع أن تفرق بين الواحد منهم والشيطان، وسترى الطفل الرضيع يلعب وسط الغابة ليس بدمية ولكن بأسد، وإذا قدر لك أن تنجو من أحراش وغابات أفريكيا فعليك واجب ثقيل، هو أن تروى للأجيال القادمة القصة الحقيقية للقارة التى عاشت، أغلب الزمان فى ظلام..

هذه أيها الناس هى المصادر الحقيقية والمنابع الأصلية التى نهلت عنها كل معرفتى بافريكيا، بالإضافة إلى تجربة شخصية حدثت لى أيام الحرب، وكان فى مصر عساكر من كل الملل وجنود من جميع الأجناس. ولكن الجنس الغالب كان جنس الأفريكان. وأشهد أنهم كانوا أشد الجنود شراسة وأشدهم ضراوة، وأكثرهم استعدادا للعراك والخناق، وكانوا يسرحون فى حوارى الجيزة فى مجموعات كأنها قبائل مفلسين ليس معهم شئ، سكارى من السبرتو، يغنون غناء كأنه البكاء، يبيعون للناس أى شئ وكل شئ مقابل زجاجة طافيا، وحتى الطافيا لم يكن يحصلون عليها، فقد كان الناس يغشون الطافيا فيضعون فيها مية طرشى وأشياء أخرى لا داعى لذكرها حتى لا يتقيأ الأفريكى الذى شربها وهو الآن على بعد مئات من الأميال !!

ولقد صادقت منهم عساكر، وصاحبت منهم أومباشية، ورأيت عددا منهم في رتبة الشاويشية.. ولكن الشئ الذى لفت نظرى حقا هو أنه لم يكن من بين الافريكان ضباط.

ومن زجاج الطائرة المعلقة فى العلالى، كما سفينة جاجارين تذكرت اسماء كل العساكر الافريكان أصحابى، الذين عرفتهم خلال الحرب وأكلت معهم عيش وملح، وتصافحنا أحيانا بالايدى وأحيانا بالمطاوى ، وهبرت من بضعهم نقودا ، وخطفت من بعضهم برانيط وسجاير .. ماير ، وكاتاكش ، ووليم ، وأدونجى ، وكولوجى وساكى ، وعشرات غيرهم كثيرون ! وكان بحر الرمال الواسع الشاسع لا يزال يترامى تحت جناح طائرة بلا برور .. لا شىء فى الأفق إلا شمس الشموسة وصهد يكتم الأنفاس وحر قاتل يشوى الناس كما تشوى النار كيزان الذرة الخضراء على شارع الكورنيش ! ولمحت وسط الصحراء نقطة خضراء على بعد سحيق كأنها فى قارة أخرى جديدة . وأنطلق صوت ناعم فى الطائرة يعلن وصولنا إلى باماكو عاصمة مالى .. البلد الذى شهد أغرب وأعجب تجارة فى التاريخ .. تجارة الرقيق ! اسم البلد نفسه كان ساحل العبيد ، كان فى البلد يوما ما سوق دائم ليس للطماطم والكوسة والبطيخ ولكن للبنى آدم ، يجرونه فى الحبال ويسوقونه بالكرباج ويعرضونه للبيع فى المزاد !! حكايات كثيرة سيأتى ذكرها فى قادم الكلام !.. المهم أننا الآن فى باماكو ، نحن الآن فى أفريكيا السوداء ، أفريكيا طرزان والقردة شيتا ، أفريكيا ما وراء الصحراء.

□□□

السعلوكى فى بلاد الأفريكى

انفتح باب الطائرة الروسى الضخمة على أرض مطار باماكو وكأنما انفتحت بوابة جهنم.. أعوذ بالله من هذا الشرد اللعين الذى يقصف الأعمار قبل أوانها ويسوى الطفل كهلا كما تسوى النار المشعلة قطع اللحم وتدهنها بلون الفحم! الحر هنا فى باماكو حر له وزن وله كثافة.. حر محترم احترام كابتن كورة أحرز هدفا فى البرازيل، حر له حيثية وله كيان وله وضع اجتماعى ممتاز.

حر ـ أعوذ بالله ـ تستطيع لو أردت أن تقبض عليه بيدك، وأن تربى منه مجموعة فى عشة فوق السطوح.. ولو أنا فى بلد مثل باماكو لشيدت مصنعا عظيما لتعبئة الحر فى أزايز وبيعها لناس لندن وباريس فهذا الحر الذى هنا حر من لون جديد، وأنا على طول ما لفيت وعلى طول ما نطيت لم أشهد حر كهذا، لا حر أسوان ولا حر الحديدة ولا حر الخرطوم ولا حر قنا الذى قال فيها حفنى ناصف وقنا عذاب النار!! لو أن حفنى ناصف ذهب إلى باماكو لاعتذر لقنا ولعاش فى قنا باعتبارها قطعة من بلاد بره! هذه باماكو اذن، حاضرة عربية قديمة عظيمة، وصل إليها والتاريخ لا يزال طفلا يرضع أولاد محمد رسول الله فأقاموا فيها إمارة ونشروا فيها حضارة، وكان ملكها العظيم منسى موسى ملك مالى هو الذى هرش مخ أوروبا ولوى عنقها نحو افريكيا وجعل الدول الكبرى كلها تتلمظ على الضحية التى لايسيل من عروقها دم ولكن ذهبا وتوابل ومعادن على قفا من يشيل.. فلقد كان الاوروبى وهو فى قمة مجده، أيام عصر النهضة، عبيطا برياله، جاهلاً كغفير نقطة جنزور، أميا لا يعرف الفرق بين افريكيا وامريكيا.. وكانوا يعتقدون أن الفلفل الأسود والفلفل الأحمر والمستكة والحبهان تأتى من الجنة، وكان نهر النيل اسمه نهر الجنة، وكانوا يظنون أن التوابل تتساقط من شجر طويل ينمو على حرف النهر ويحملها التيار معه إلى القاهرة حيث يصطادها الناس المتسكعين على شاطئ الجيزة بالسنارة وبالشبكة.. ولم يكن مماليك مصر فى ثراء.. "مماليك"

أوروبا ولكنهم كانوا أحذق من نشال وأنصح من العفاريت الزرق، وهم الذين بدعوا هذه الروايات وروجوها على بتوع أوروبا أولاد الهبلة لكى يضربوا نطاقا من الغموض حول القارة والتجارة، حتى لا يأخذ الأوروبيون عساكرهم ومدافعهم ويقتحمون أفريكيا فيلهفوا خيراتها وينهبوا كنوزها وتخرج مصر من المولد بلا حمص، وكانت وقتئذ تعيش على ما تحصله مصلحة الجمارك من أموال! المهم، كان ياما كان ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام، إن هذا الملك الكبير الكريم منسى موسى جاء إلى القاهرة فى طريقه إلى الحج، ومعه حاشية، ومعه قافلة، ومعه ذهب أصفر رنان، ومعه فلفل أسود يكفى لعمل حلة سلطة يوميا لمدة عشرة أجيال.. وخطف بريق الذهب أبصار بعض التجار الأجانب لعلهم كانوا بقالين من اليونان، فعندما ذهبوا إلى الشاطئ الأوروبى فبركوا القصة فاذا بها ملك أسود يرتدى زيا فضفاضا، أصفر فى أصفر، عليه تاج من الذهب، وفى قدميه حذاء من الذهب، وحول وسطه حزام من الذهب، وفى يده سيف من الذهب، يشرب فى كأس من الذهب، ويأكل فى سلطانية من الذهب، فاذا تكلم أو تنفس لا يخرج من صدره هواء وانما عروق من الذهب الخالص! تلك كانت البداية، ويا داهية دقى على الذى حصل للقارة الغلبانة افريكيا بعد سنوات من ذيوع هذه الرواية.. هجمت السفن الأوروباوى كالكلاب المسعورة على الشاطئ الافريكى تهبر توابل ومعادن، ثم لم تلبث ان تركت هذه الأشياء جانبا وراحت تهبر رجالا يبيعونهم فى السوق كما تباع الكوسة والباميا الخضرا فى سوق العتبة! وبلغ ما خطفوه مائة مليون رجل افريكى لو ظلوا فى أماكنهم لصنعوا من افريكيا جنة الله فى أرضه.. ولكن حكاية الرقيق وتجارة الرقيق لم يحن وقتها بعد، وسيأتى الكلام عنها بالتفصيل فى قادم الفصول..

المهم أننى نزلت باماكو والدنيا أشد حرارة من نار جهنم، والهواء مات منذ عشرة قرون.. والشمس ليست فى السماء، ولكن السماء كلها شمس وكلها محرقة.. لا طير يرف فى الفضاء لأن أى طير يقل عقله ويطير ولو على ارتفاع قدم لهوى على الأرض مشويا بإذن الله.. ولو ولد مصرى حدق مفتوح العين كبابجى من

محلات الشيمى يسافر الى هناك ويفتح محل كباب وطيور مشوية لأصبح بنكيرا فى خلال عام، فلن يحتاج إلى فحم ولا فرن ولا مروحة يهوى بها على النار.. يكفيه إذا طلب الزبون حماما أن يطلق الحمام فى الجو.. وسيسقط الحمام بعد لحظة مشويا فى طبق من الفخار. ها هى معلومات سينما مترو تحقق فى باماكو، الناس هنا طوال كنخل الحوامدية، أرشق من خشب الزان، أسود من منجم فحم، ولكن الملامح حلوة، العيون مشروطة، الأنف مدببة كسن القلم الرصاص.. الشفايف مبطرخة، والست هنا تكشف عن رأسها، والرجل يخفى وجهه بلثام! هؤلاء هم أبناء الطوارق.. عرب صحراء افريكيا الكبرى، أشجع وأجدع رجال على ظهر الأرض. الذين حاربوا استعمار أوروبا ببسالة وبهبالة.. ودخلوا على المدافع بمطاوى واقتحموا الحصون بسكاكين وأدوات مطبخ إيديال!!

واللثام ضرورى وواجب فى الصحراء. لأن الصحراء غدارة، وفيها تلال تتحرك كالثعابين السامة، ورياح تردم الناس أحياء، وأعادى ما أكثرهم فى الفلاة! والمدينة نظيفة وجميلة ولكنها ليست تماما افريكية، أعظم وصف لها أنها مدينة صحراوية، ولكن على بعد بعيد منها تمبكتو، أجمل وأكمل بلد فى الصحراء الافريكية، حلم السادة تجار أوروبا فى العصر القديم، ولكنهم أبدا لم يستطيعوا دخولها، وحلم السادة مخرجى هوليود فى العصر الحديث، وافلاما عنها انتجوا، وروايات حولها نسجوا، وخرافات من جوها صنعوا، وكسبت هوليود ملايين الدولارات من تمبكتو ولم يستطع تجار أوروبا الأقدمون أن يكسبوا منها فلسا، الاستعمار الجديد هزم الاستعمار القديم وبالكاميرات دخلوا تمبكتو، وبالمدافع لم يستطيعوا دخولها! باماكو الجبارة وتمبكتو العزيزة ومالى وأفريكيا وكلمات عربية يهمس بها رجل فى أذنى.. وكان أول لقاء بيننا ولكنه سيمتد، وسيكون الرجل إياه رفيق رحلتى إلى داخل أفريكيا.. رجل يرتدى جلبابا وعقالا ومعه مسبحة من حبات الزيتون، رجل عربى يقول الشعر.. وهو من بلاد الرجل دايما فيها ثرى ودايما أمثل ودايما له زبيبة ودايما يرتدى الحرير الهندى ودايما معه سيارة كاديلاك ودايما معه فلوس فى البنك. ولكن لأن الطيور على أشكالها تقع، فقد كان العربى الوحيد الذى وقع

فى قرعتى مجاهدا يحلم بالاشتراكية.. مكافح هربان من بلاده فى طريقه إلى مؤتمر آسيا وافريكيا. غلبان أغلب من عبد حبشى، مفلس ولا مسجون خارج من تأبيدة، مصلح اجتماعى ولا أبو ذر الغفارى، ثائر تكاد أعماقه تحترق ولا الحريقة المشتعلة فى جو باماكو! والعربية هنا مفهومة ومستعملة، وواحد من أبناء محمد يركع ويسجد فى الطريق ووجهه نحو القبلة. ولكن الرجل العربى خلع ملابسه وارتدى الملابس الأوروبية منعا للاحراج. وطول الليل والرجل العربى يثرثر على ودنه، ومع أننا فى الليل وفى الهواء الطلق إلا أننا كنا وكأننا لم نكن فى الخلاء فلم يكن ثمة هواء على الاطلاق! وعسكرى أسود كأنه قطعة من الليل يتمشى افرنجى على بعد خطوات منا! والأتوبيسات تجرى على الطريق أمامنا كما أوتوبيسات الخرطوم.. أوتوبيسات من باب الدلع.. عربيات كانت صناديق شاى فى الماضى البعيد، ثم ظهر لها موتور كما تظهر الدمامل فى جسم الانسان.. والعربية من دول تقوم من محطة القيام وبعد كيلومتر واحد تشحط وتنقطع أنفاسها وتموت ويتولى الركاب زقها حتى محطة الوصول.. وهى وسائل المواصلات باعتبار أن الانسان هو الذى يقوم بتوصيلها حتى لاتتوه فى الطريق.. كارثة كبرى أنه بعد عشرات ومئات السنين من الاستعمار لا يجد الأفريكى الطيب شيئا يركبه.. والمدينة كلها نائمة وميتة بعد التاسعة، ولأن الدنيا حر فقد كان السيد الخواجا يجد حياته فى منزله فى حدائق كما حدائق الجنة، وتكييف هواء وحمامات سباحة، ولأن الاختلاط بالافريكان عيب، فقد كان الأوروبى يغلق بابه ويبتعد! وكان على الافريكى أن يجد حياته فى المدينة تحت أى ظروف، وكانت ظروف معيشته دائما منحطة، ولكنها عال مادامت تحفظ عليه حياته ليعاود العمل فى مزارع ومناجم السادة البيض! وفى الفجر انتهى الحر فى أمان الله.. وحمدت خفى الألطاف الذى نجانا مما نخاف.. غير اننى اكتشفت بعد فترة أن الذى أخاف كان لا يزال موجودا بخير.. الحر لم ينته ولكن أنا الذى انتهيت.. ساح عقلى فأصبح كالشكولاته.. ووقعت ليس فى غيبوبة ولكن فى ديخوخة.. من الدوخة والعياذ بالله! وقمت أتوكأ على أحمد صديقى الذى كان يظن أنه هو الذى يتوكأ علىّ! وعلى طول الطريق من المدينة إلى المطار

يلوح لنا ناس باماكو فى ود بالغ.. ولاح شبح ابتسامة على شفتى.. تذكرت المورى أبدو عسكرى مالى الطيب الذى صاحبناه وأحببناه ذات يوم من أيام الحرب الثانية.. ورغم مرور أكثر من عشرين عاما على صداقتنا بالمورى أبدو.. إلا أن وجهه الطيب السمح لم أنساه.. ولقد صادقنا نحن شلة الجيزة لأنه كان يشكو الوحدة، وصادقناه لأننا كنا نشكو الإفلاس.. وبعد ستة أيام من الصداقة المتينة والكلام فى مستقبل افريكيا قررنا أن نهبره. وذات مساء طلب منا خمرا فطلب زعيم الشلة منه خمسين قرشا.. وكان فى نيتنا والله أعلم أن نشترى له زجاجة خمر مغشوشة بعشرة قروش ونلهف أربعين قرشا.. ولكن الرجل الطيب ابن الناس المورى ابدو عسكرى مالى الطيب توقف فى ميدان الجيزة فجأة، وقال اذهبوا أنتم بسلام، اشتروا الخمرة المعتقة وسأنتظر أنا هنا.. وكانت مفاجأة غريبة لم نتعود مثلها فى صفقاتنا الماضية.. كان العسكرى الافريكى يعكم الواحد منا فى قفاه فلا يتركه حتى يقبض على زجاجة الخمرة المغشوشة.. ولقد حدث مرة أن عسكرى أفريكى من دار السلام عكم العبد لله من قفاه حتى بعد أن استلم الخمرة.. وأصر على ألا يتركنا إلا بعد أن يأخذ نقوده، المهم اننا تركنا المورى أبدو واقفا فى ميدان الجيزة وانصرفنا.. وبالطبع لست فى حاجة إلى أن أقول لكم أن أحدا منا لم يعد! ولم يكن هذا هو الغريب فى قصتنا مع عسكرى مالى الطيب المورى ابدو ولكن الذى سحكيه الآن هو الشئ الغريب! بعد أيام التقى المورى أبدو بواحد من الشلة يتمشى افرنجى على شارع الترماى.. ووقع قلب أخينا فى بطنه ونشف دمه وطقطق شعر رأسه من شدة الخوف ولكن المورى أبدو سأله فى ود شديد عن الأصدقاء». ولماذا لم يعودوا تلك الليلة! واخترع صاحبنا قصة ترشحه للتأليف فى مسرح ساعة لقلبك، قال أن أولياء أمورنا قبضوا علينا فى نفس اللحظة التى كنا نشترى فيها الخمرة ، وأنهم ساقونا أمامهم إلى البيوت مصفدين فى الغلال ولا رقيق اشتراهم خواجا من ساحل أفريكيا.. قصة مضحكة حقا ولكن المورى أبدو استمع اليها ولم يضحك.. ولو أننى قصصت ذات القصة على حفيدى محمود لأن فلربما هزر معى هزارا شديد البواخة عديم الاحترام! ولكن المورى آبدو أبدى

شديد أسفه لما حدث لنا بسبب أنه أراد أن يشرب كأسا فى ليلة شتاء! وتأسف صديقنا أيضا لأننا لم نرد له الخمسين قرشا فى حينه وسحبه من ايده إلى قهوة كنا نجلس عليها ولها أكثر من باب. ولعل هذه الميزة ـ أكثر من باب ـ هى التى رشحتها لنا دون قهاوى الناس للجلوس.. فلقد كنا نعيش فى ذعر دائم من عساكر الافريكان.. وكأننا أرانب صحراوية عليها أن تجد بابا للفرار إذا حانت ساعة العراك والخناق! ووقف العسكرى المورى أبدو على الرصيف، ودخل صاحبنا إلينا، فلما أبصرنا المورى أبدو واقفا يتطلع إلينا تجمد الدم فى عروقنا فقط خطر لنا أنه جاء للانتقام! ولكن عندما حكى لنا الصديق القصة خطرت لنا فكرة أخرى نهبر بها مبلغا يكفينا شر التهويب ليلتنا على كامب الافريكان! وبعد لحظة ذهب الصديق إلى المورى أبدو وطلب منه خمسين قرشا أخرى لأننا لا نملك إلا جنيها صحيحا ولا توجد فكة فى أى مكان، وهكذا أخرج المورى أبدو الخمسين قرشا ببساطة وهكذا أيضا لهفها صديقنا ببساطة ودخل القهوة، وهكذا! أيضا خرجنا جميعا من الباب الخلفى ببساطة، وتركنا المورى أبدو واقفا مكانه على الرصيف ينتظر.. ولعله لايزال واقفا مكانه حتى الآن..!

نسيت أن أقول لكم أن المورى أبدو معناها المريد عبده! حكاية قديمة تذكرتها وأنا فى طريقى من باماكو المدينة إلى باماكو المطار.. والناس الطيبون يلوحون لنا بأيديهم لا لشئ إلا لأننا غرباء ومن بلد بعيد! زيارة خاطفة لمالى ولكن عميقة! والرجل الذى لا أنساه شيخ فى السبعين شديد البأس ولا سيد نصير، نظره على قده ولا الحكم صبحى نصير، نحيف كما عامود النور، سريع الخطوة ولا اكسبريس الصعيد، كان قادما إلى باماكو من رحلة طويلة فى الصحراء، ومهنته دليل قوافل، يتنقل بين ليبيا والجزائر والمغرب وموريتانيا وإذا كان هو عنتر فالصحراء عبلته، وهو أحيانا يقضى سنوات طويلة لا تقع عيناه إلا على اللون الأصفر.. الرمل وسادته والزلط.. نهر المياه الذى يصب منه فى أيام القيظ الاغبر! عاصر الصحراء فى فترة غليان.. وشاهد فلول جيش الأمير عبد الكريم الخطابى وهى تهيم على وجهها فى الصحراء، وعساكر أسبانيا الذين طاردوهم مطروحين

على الرمال الساخنة كالفسيخ البورى! وهو دائما أثناء غـزواته السلمية يرى فى الصحراء رحلات مريبة، ست خوجاية حلوة ورجالة بيض بيض كالثلج الذى ينبت على قمم جبل اشانتى يضربون فى الصحراء الوسيعة.. وهو أحيانا يرى بعضهم فى رحلة العودة، وإن شئت الدقة يرى آثار بعضهم مجرد عظام نخـرة وحولها زجاجات بيرة فارغة وعلب طعام محفوظة وشنط فيها ملابس قذرة!!

وسيدة أخرى من مالى كانت تعيش منذ عشرة أعوام فى النيجر.. التقت على الحدود هناك بمكافح جزائرى فى جيش الثورة. جريح كان يعانى من رصاصة اخترقت كتفه. وهى تتكلم فرنساوى والولد أيضا لبلب! وتفاهما وتحابا وطارا معا إلى تطوان فى المغرب وعقدا قرانهما فى قصر فخيم عظيم على تلال تطوان الحلوة. وكان القصر يملكه رجل جزائرى ثرى يعيش حياة مرفهة وله سمعة كالطبل فى كل المغرب!

ولكنها اكتشفت بعد يوم واحد أن القصر وصاحبه خدعة، وأنه مخبأ ومستشفى لجيش الثورة، وبعد شهر ودعت الزوج على حدود وجدة. وذهب إلى جبال تلمسان ولكنه لم يعد أبدا.

وحتى بعد الاستقلال دخلت الجزائر وبحثت كالمجنونة فى كل شبر ولكنها لم تجد شيئا. فعادت إلى بلادها ومعها صورة للشهيد الذى مات فى معركة بزوغ افريكيا! البنت أشهد أنها فى لون الشاى المغلى، طعمه كما قطعة الخروب الهندى ملامحها أوروبية وعيناها فى خضار برسيم بلدنا..

سألتنا فى صوت ولا صوت الكمنجة:

– من مصـر؟

– نعـم...

– زرتها مائة مـرة.

– أعجبتـك؟

– لم أرها ولا مـرة..

قطعة الخروب الهندى... ناوسا واسمها بالعربى ناعسة، تعمل مضيفة فى شركة طيران أفريكية.. وهى زارت مطار مصر مائة مرة ولكنها لم تر مصر ولا مرة. رأتها من الجو بيوت كعلب الكبريت!..

وشوارع كابر الخياطة وحقول كالسجاجيد العجمى!!

الجو هو الآخر صحراء ليس فيه معالم وليس فيه مناظر، وأى صلة وثيقة بدليل القوافل ومضيفة الطيران؟

والطيارة الروسى الضخمة لا تزال رابضة على أرض مطار باماكو فى انتظارنا، كأنها قدرنا يتبعنا. وكيف نهرب من أقدارنا وهى حكم علينا؟

والطيارة الروسى تنطلق بنا فى الجو كوحش مجنون هارب من قفصه. وأنا نائم التهم أرزا مع الملائكة فقد أصبحت قريبا منهم. المسافة بين الطائرة وبين السماء فركة كعب وفى الحالتين معا سواء حلقت فى العلالى أم هوت بنا على جدور أعناقنا! والصديق العربى مصر إصرارا عنيدا على أن يسمعنى شعرا فى الثورة! وإلى غانا.. إلى قلب افريكيا حيث نقضى شهرا طويلا جميلا! ولسوف نحكى قصصا وحواديت وأساطير وتواريخ ما أجملها..

□□□

عبيد ليفربول .. أكثر سواداً

لايمكن مهما قلت ومهما رغبت أن أصف لكم افريكيا .. ولا شئ يمكن أن يطلعك على أفريكيا أبدا، لا الكتابة ولا الأفلام ولا التصاوير وإنما شئ واحد فقط هو الذى يستطيع أن يفعل ذلك، هو أن تأخذ ذيلك فى أسنانك وتجرى على افريكيا!!

فهو منظر لو فاتك - يا عبد الله - رؤيته فأنت لم يكتب لك المرور على دنيا الناس! فلا أوروبا بجمالها ولا آسيا بأسرارها تستطيع أن تقف إلى جانب افريكيا فى معرض القارات!

ستجد هناك جمالا فشر جمال أوروبا، وألغازا تصبح إلى جانبها أسرار آسيا مجرد فوازير ونكت بايخة! وناس افريكيا ما أحلاهم وما أطيبهم وما أبسط وأجمل حياتهم!

ولكم تمنيت أن أفرش حصيرة افريكانى حلوة، وما أحلى الحصير الأفريكى وما أغناه، تمنيت أن أفرش حصيرة افريكى على الساحل واتسلطح على ظهرى لا أهش ولا أنش، إذا عطشت أمد أيدى وأكسر جوزة هند فى حجم البطيخة المجيدى الحلوة، أشرب وأتكرع وأتبغدد وإذا جعت فلا أمد ايدى ولا حاجة، انتظر فقط حتى يسقط من على الشجرة قفص منجة الفونس فى حلاوة جاتوه اخونا جروبى، التهم القفص وأتبهنس! فإذا أردت أن أغسل يدى فالسماء كفيلة بكل شئ. ستمطر حتما إذا كنا فى الصيف، وإذا كنا فى الشتاء فلسوف تمطر أيضا.

هذا اذن هو ساحل غانا الذى لا أستطيع وصفه. الساحل الساحر الذى اكتشفه يوما ما ولد برتغالى صايع كان يتمخطر فى عرض البحر بمركب جربانه ولكن عليها مدافع جبارة، وفوق المدافع علم فى حجم ملاية السرير مرسوم عليه صليب مسنون ومدبب فى كل ناحية من نواحيه الأربعة كأن كل حافة فيه حربة!!

ولكن قبل مجئ هذا الولد البرتغالى الصايع، مرت من قبل مراكب أخرى جبارة

ولكن بعيدا عن الســـــاحل، تخترق بحر الظلمـــات فى طريقها إلى عالم مـجهول ومســــعـور لم يصل إليـه كائن حى من قبل. كـانت سفن البرتغال تجرب حظها تحـاول الوصـول إلى أرض الكنوز فى الهند. كـانت البـرتـغـال وقـتـئـذ بلدا فـتـيـة مـفترية، لديها مراكب كما الصواريخ الآن فى روسيا. وعلى المراكب مدافع تطلق النار فتبيد الغلابا المنكســرين الذين يهجمون على الأســـود بسكينة بصل ومطوةمصدية!

وكـان لديها بحارة ولا الشياطين الحمر، عليهم شقاوة ولا العفاريت الزرق، طموحين اغتنوا واغنوا بلادهم، مغامرين مات نصفهم فى رحلات الكشف، ومات النصف الآخر فى رحلات اللهف والخطف!

وعندما جاء الولد البرتغالى الصايع بمركبته كان شاطئ غانا هادئا وديعا كما قطة.. أشجار جوز الهند ملفوفة كما بنات حلوين فى ملايات حرير سودة. وأشجار الأناناس تتمخطر مع الريح كأنها أعلام ملك الغابة نشرها على الساحل فى يوم عيد.. وولد افريكى طيب يتسكع عند الشاطئ يصطاد سمكة بحرية، ويقطف جوزة هند بخشبة زان أطول من قلع المركب. وربما كان هناك قرد يصرخ وكلب يعوى ونسر جبار يحلق فى السماء السابعة بحثا عن ميت فخيم يحط عليه ويأكله!

المهم أن الولد البرتغالى الصايع دخل شاطئ أكرا وطوى قلوعه وألقى مراسيه وطقطق مدفعين من عنده تحية للشاطئ المجهول. ولكن المدفع - يا للهول على رأى يوسف وهبى - جعل النسر يحلق فى العلالى والقرد يشطح نحو الغابة، والولد الافريكى الطيب يسدد حربته التعبانة نحو المركب وينطلق يجرى فى داخل أكرا، وقد تأكد لديه أن القيامة قامت، وأن المدافع هى جرس انذار لتستعد الناس وتتهيأ! ولم تكن القيامة قد قامت ولا أى حاجة، وربما انتهى الأمر بالولد الأفريكى الطيب إلى الجنون أو الموت.. لا يهم، فالمهم عندنا هو الولد البرتغالى الصايع الذى رسا على ساحل أكرا ذات صباح جميل منذ خمسة قرون، عاش الولد على الشاطئ أياما، ثم عاد، ولكنه حمل معه فى رحلة العودة ثمارا وفواكه وحفنة تراب من أكرا وأحلاما واسعة بالسيطرة على هذه الأرض. وبعد شهور عاد من جديد فى

عمارة بحرية شديدة الهول، ومعه مرسوم من ملك البرتغال بأن يكون كل ساحل غانا تابعا لأملاكه. ولم لا وقد صار ملك البرتغال ملك زمانه وأوانه ووحيد عصره! الاسطول المصرى العظيم تحطم مع أسطول البندقية فى معركة بحرية ضد اسطول البرتغال. وعندما استقر حطام آخر سفينة مصرية فى قاع البحر كان ملك البرتغال قد أصبح هو الحاكم بأمره، وأصبحت كل الكرة الأرضية ملك يديه. لولا دولة أخرى تجاوره على الخريطة وتزاحمه فى البحر هى أسبانيا، وهى قصة خلاف مؤسفة مكسفة ـ من الكسوف ـ جعلت البابا شخصيا يتدخل فى الأمر، فيحكم بأن نصف الدنيا جنوب خط عرض كذا تابع لملك البرتغال، ونصفها الآخر شمال الخط إياه تابع لملك أسبانيا، ومن ذلك اليوم الأغبر بدأت أغرب وأعجب عملية نهب عرفها التاريخ. لم يلبث ساحل غانا أن سقط فى يد شركة الهند الشرقية. ولكن ذلك اليوم لم يكن قد حان بعد. عندما وفدت عمارة الولد البرتغالى الصايع على شاطئ أكرا هدفها التجارة وهداية الناس السود إلى طريق الرب!! ولذلك جاءت العمارة البحرية وعليها مدافع، ومع المدافع حفنة من رجال الكهنوت! واستقرت البعثة عند الشاطئ فى صمت وفى هدوء. لا تتكلم مع أحد ولا يتكلم معها أى أحد. بدأ عهد التجارة الصامتة. البيع والشراء يتم على طريقة شارلى شابلن فى أفلامه القديمة! العيال البرتغال يضعون خرزا أحمر وأصفر ومطاوى مسنونة وسيوف تلمع. ويأتى الافريكى فيلهف ما تركه العيال البرتغال.

ويترك مكانه ذهبا وتوابل وأشياء أخرى يسيل لها اللعاب. وقضت البعثة شهورا أقامت خلالها على الشاطئ قلعة منيعة لتصبح مركزا للتجارة فى قادم الأعوام. ولكن حدث فى اليوم الأخير حادث هايف سيكون له تأثير عميق على القارة الغلبانة. وسيقلب الحياة فيها وفى العالم لعدة قرون. جاء ولد أسود افريكى غلباوى الى الساحل. وتقدم نحو العيال البرتغال يتفرج عليهم ويضحك من الأعماق. وكان الآباء الطيبون يصلون فى خشوع عميق وتراتيلهم تتصاعد إلى أبينا الذى فى السماوات!

وظنهم الولد الافريكى يرقصون ويمرحون، فوقف على مرمى حجر منهم يغنى

ويكركع. وخطر لولد برتغالى خاطر شرير، فتقدم من الولد الأفريكى وقدم له كأسا من منقوع البراطيش، وشربه الولد الافريكى وانبسط جدا. كانت أول مرة تذوق فيها خمرا وستكون الأخيرة! راح يرقص ويتنطط كأنه قرد جن فى الغابة، ثم سقط على الأرض بعد ذلك ليحمله البرتغال معهم على السفينة إلى لشبونة. حادث هايف كما قلت، سيحاكم الولد البرتغالى البحار بسببه، فالملك يريد ذهبا وتوابل ولكنه ليس فى حاجة إلى مثل هذا العبث الشيطانى الذى أقدم عليه هذا الولد البحار! غير أن رجلا برتغاليا نابه أزرق، عجوز كما سيدنا نوح، شرير ولا شيطان، مهدود الحيل ولا شيال فى محطة الجيزة شاهد الولد الافريكى فى الميناء، وكانت نظرة مهببة جرت المصائب والبلاوى على الجنس الافريكى كله. اندهش الرجل غاية الاندهاش لهذا التكوين الجسمانى الفذ، الولد الافريكى منفوخ العضلات كعمنا كلاى، عريض الصدر كفتوة باب الوزير. شديد البأس كضبع. وتحسس الرجل الخبير عضلاته وعظامه، وخطف ذيله فى أسنانه ورمح إلى قصر ملك البرتغال. فلو أن المراكب عادت من افريكيا بأعداد وفيرة من هذا الصنف الممتاز من الرجال لغلت المزارع ضعف ما تغله الآن. ولسارت السفن ضعف سرعتها التى تسيرها الآن، ولتغيرت الحياة فى أوروبا وفى المستعمرات. فقد كانت أمريكا قد اكتشفت منذ لحظات، وامريكا الجنوبية تم اكتشافها من زمان. وظلت على حالها برارى شاسعة يسكنها البعوض والهوام. والبرتغالى الذى عاد وذهب إلى هناك مات بعد أسبوع واحد من شدة النكد والاجهاد! ماذا لو ذهب أهل افريقيا الأقوياء الأصحاء لتعمير هذه البلاد؟! وفعلا، أخذت المراكب تجرى بأقصى سرعة نحو الساحل الغربى لافريكيا، لا ترغب الآن فى ذهب ولا فلفل أسود ولا حبهان. هذه تجارة قديمة لم يعد فيها خير. التجارة الجديدة أكسب وأسهل. ومن هنا قامت تجارة الرجال. وكانت اكرا أول مركز للتجارة الجديدة، ولم تلبث مراكز كثيرة أن قامت على طول الساحل. وبدأت عملية صيد الرجال بالشبكة وأحيانا بالرصاص. مئات الألوف يجرجروهم كل يوم فى حبال وسلاسل. والكرابيج تلسع وجوههم وتلسع ظهورهم، والذى يسقط منهم يموت مكانه، التجارة

لا تعرف الرحمة. وهؤلاء ليسوا ناس ولكنهم مجرد آلات بشرية! ومات مئات الألوف ولكن التجارة لم تتوقف. حتى أن الطريق من خماسى داخل غانا إلى اكرا كانت معالمه من عظام الانسان! ويحشر ناس افريكيا عند الساحل فى عنابر كعنابر الخيل المعدة للتصدير. ويأتى فى الصباح أب طيب يحمل كتاب الله وصليبه، فيرش الجميع بالماء المقدس. وما دام العدد وفيرا فمن المضحك طبعا أن يستخدم الأب الطيب زجاجة أو قنينة. وبما أن الحكاية كلها تجارة وتهليب، فقد كان الاب الطيب يعمد اخوانه الجدد فى الدين بماء يرشه عليهم من براميل أعدت خصيصا على ظهر السفينة. وبعد دقائق تنتهى عملية الرش المقدس، ويصبح الافريكان الغلابا مسيحيين طيبين! مسموح لهم بدخول ملكوت الله!

تصوروا، الناس البنى آدميين أولاد الأصول تحولوا إلى سلعة، يضربونه على صدره وعلى ظهره ويزغزغوه ليكشفوا عن أسنانه، ويأخذون عينة من شعر رأسه ثم يعرضونه فى السوق للبيع. ولأن العبيد كانوا بترول تلك الأيام. فقد دخل السوق أكثر من تاجر ثم أكثر من دولة. وحتى لاتتوه البضاعة فى زحمة الشغل، كان كل تاجر يختم بضاعته بختمه. تحول الناس الافريكان ـ يا حول الله ـ إلى ازايز ويسكى. عبيد هيج، وعبيد ديوارس، وعبيد جونى ووكر. أصبحوا مثل السجاير ـ ياولداه ـ كيلوباترة وهوليوود وبلمونت وأصبحت هناك أصناف ممتازة تختفى فورا من السوق ويبحث عنها الناس فى الموانئ والسواحل بعود كبريت!! وأصبح للبنى آدم الطيب ابن الأصول بورصة وتسعيرة، وعندما أصبح للسوق تسعيرة دخل الغش فى السوق. تجار خواجات فهلوية ليس عندهم دين ولا ذمة راحوا يغشون البضاعة معذورين، لأن شركات الاحتكار الكبرى لم تدع للتجار الصيع أمثالى مجالا لأكل العيش! كانت أعظم ماركة هى ليفربول، شركة انجليزية عظيمة تملك ألف سفينة تمرح بين الشاطئ الافريكى والشاطئ الأوروبى لا تون ولا تهدأ. وكانت تبيع أعظم الأصناف. وكان ختم ليفربول على كتف العبيد جواز مرور ليختفى الصنف فوراً ليعاود بيعه فى السوق السوداء، وبما أن حكومات اوروبا فى ذلك الحين كانت عادلة وكانت ضد التجار الجشعين، فقد كان تجار السوق السوداء

يضطرون إلى اخفاء البضاعة فى سراديب تحت الأرض وفى كهوف فى الجبال ثم لجأوا بعد ذلك للمقابر يدفنون البضاعة وهى حية، ثم يخرجونها حته بعد حته. وكانت "حتت" كثيرة تموت أثناء عملية التهريب والبيع إلا أن الذنب كان يقع على عاتق الحكومات المتشددة الحنبلية التى تريد البيع بالقسط والميزان!

أما التجار الصيع أمثالى فقد نزلوا شاطئ أفريكيا يلقطون رزقهم فى الخفاء. لم يكن معهم مراكب ولكن قوارب صيد قذرة ومكشوفة ورديئة غاية ونهاية فى القذارة وسوء الحال! ولما كانت وسائلهم محدودة فقد كانوا يخطفون الأطفال والمرضى والشيوخ المسنين. وبالقوارب ينقلونهم إلى الشاطئ الآخر، ثم يحقنون الجميع حقنا يستمر مفعولها أسبوعا. تجعل من الصبى المريض هصورا كالأسد، وجهه مزنجر من الصحة الحديد، عيناه مفنجلتان كما الصقر فى الفضا.. بضاعة مغشوشة.

كان الشارى الخشنى يدفع فلوسه ويجر العبد خلفه، وبعد يوم واحد يعود إلى الساحل مرة أخرى ومعه جثة العبد اياه يطلب فلوسه! ولما كانت الحكومة عادلة فقد كانت تتدخل لمصلحة التاجر، مادام البيع والشراء قد تم بالرضا والمهاودة وكل شئ فى العملية سار بما يرضى الله!

ولذلك ظهرت اعلانات ضخمة على الشواطئ فى أوروبا وفيما وراء البحار فى أمريكا تعلن عن البضاعة الجيدة وتحذر من البضاعة المغشوشة. ولابد أن هذه الاعلانات كانت بالفسفور وكانت على ألوان. وعبيد لويد هم الأصل. وعبيد ليفربول أكثر سوادا. وخذ عبيد بومبال واشكر الرب المتعال!!

وكما ينضب بئر البترول فجأة فلا يعود يبز قطرة جاز، كانت القرى الافريكية تنضب، والمدن الافريكية تخلو من أهلها، ثم خلت مناطق شاسعة تماما ولم يعد فيها شئ. ساحل غانا وغينيا وساحل العاج وليبيريا كنسها التجار من أهلها، حتى الكلاب نفسها هجرتها لأن أحدا غيرها لم يعد هناك! وانسعر أهل أوروبا فراحوا يتوغون فى الداخل كلما خلت منطقة من السكان. وكان ملك البرتغال شيخ مشايخ

تجار الرقيق يصدر تعليماته إلى تجاره الذاهبين إلى هناك. برغم أن الهدف الرئيسى هو خدمة الله والكنيسة، فلابد أن تعود السفن محملة بالعبيد والعاج..

ولكن هذا الهدف الرئيسى الذى هو خدمة الله والكنيسة أمر يدعو إلى الضحك بلا شك، إذا علمت أن عدد المسيحيين الذين اهتدوا إلى طريق الرب فى غانا خلال قرن كامل من الزمان بلغوا ألف افريكى! أما المبشرون أنفسهم ورجال الكنيسة فقد خلعوا رداء الرب وتركوا كتابه فى نفس اللحظة التى وضعوا فيها أقدامهم على الساحل الافريكى، واشتغلوا جميعا فى استغلال الأرض والبحث عن الذهب، والبعض الآخر كان أكثر صراحة فاشتغل فى تجارة العبيد!! ويا كبدى المقروح على افريكيا الغلبانة، خطفوا منها عددا لا أحد على ظهر الأرض يعرفه، ولكن عدد الذين وصلوا إلى الشاطئ الآخر وبيعوا فعلا وسجلوا فى الدفاتر والحسابات بلغ مائة مليون عبد، وفى دنيا التجارة «الشحنة لا تصل دائما سليمة» ومادامت هذه الشحنة المهببة ناس أولاد بنى آدم فقد كانت الخسارة فيهم أثناء الطريق أفدح! ومادام مائة مليون وصلوا فلابد مائة مليون آخرين ماتوا فى المحيطات أثناء الرحلة المشئومة! وهكذا تمت أغرب وأعجب تجارة فى تاريخ البشرية، وذهب أولاد افريكيا العظام لينشروا الحيـــاة فى أوروبا وأمريكا وجزر الهند الغـــربية، واغتنى من هذه التجـــارة شخصيات لامعـــة ومحترمة ومشـــهورة ، الملكة اليزابيث كانت أعظم التجار وأغناهم، وكان ملك البرتغال ينافسها وكذلك ملك أسبانيا ، وكل حضرات اللوردات والبارونات والماركيزات فى دول أوروبا كلها بلا استثناء هم أحفاد تجار البنى آدم! فقد بلغ هؤلاء التجار وضعا اجتماعيا ممتازا بفضل الذهب الذى سال بين أيديهم، جعل الألقاب الرفيعة وقفا عليهم مدى خمسة قرون من الزمان !

قصص مضحكة مبكية ستجد بعض آثارها منقوشا على جدران أول قلعة بنيت للتجارة المشئومة على شاطئ اكرا! وفى قلعة ونيبيا ثانى مركز للرقيق فى افريكيا ستجد دماء البضاعة متناثرا على الحيطان وعلى الأرض، وإلى يومنا هذا لايجرؤ افريكى من ونيبيا على الاقتراب من القلعة.

الأسـاطير تقـول أن النـاس تسـمـع صـراخـا ينبـعث من داخلهـا فى الليل، وأن الأشبـاح تحـوم حـولهـا فى الظلام ترغب فى الانتقـام، ويا ويل الرجل الابيض إذا هوب نحوها عندما تغطس الشمس فى المحيط الاطلسى!

تلك هى القصة الدامية من طقطق لسلامو عليكو ومع ذلك قلبوها أولاد الدايخة الخواجـات فـأصبح العـرب فى كتب التـاريخ هم تجـار الرقـيق، هـم الذين بدعـوهـا وروجوهـا، والأوروباوى المسكين دخل السوق مشتريا ليس إلا! والأوروباوى يقول هذا القـول وله العذر، ولكن مـا عذر السـادة العـرب حين يقـولون أيضـا مـثل هذا الكلام وفى كتب مـفروض أنهـا علمـيـة وجـامعـيـة.. ويا مـهلبـيـة يا..!!! تحت يدى كتب عربيـة تدين العـرب وحدهـم دون غيرهم بتجـارة الرقيق، حتى الدولة العربيـة العظيمـة التى قـامت فى الكونغو، وفى منطقة كـاساى وكـاتنجا، دولة حـمـيد الرجيبى أو تيبو آخر قلعـة وطنيـة سـقطت فى افـريكيـا بعـد أن ظلت تكافح وتقـاوم عـشـرات السنين! وبسـقـوطـهـا انفـتح بـاب الكونغـو أمـام اسـتـعـمـار البلجـيك. ومع ذلك فليس حـمـيـد الرجـيـبى فى نظر العلمـاء العـرب إلا تـاجـر رقـيق اخـتلف مع البلجـيك. فـضـربوه وطردوه من البلاد لينشروا العدالة والحضارة فى حوض الكونغو العظيم!

مـا علينا.. أنا فـقط عرضت الصـورة البـشـعـة لتكون على علم بالذى حـدث فى افريكيا. فـالذى حدث لم يكن خيـرا طبـعـا، ولكنه أيضـا لم يكن شـرا كله، فـهـ هـى افـريكيـا بعـد طول انتظار، وأنا أتسنكح على شـاطئـهـا بجلبـاب حـرير سكروتة وشبشب زنوبة.. أكاد أتخبل فى عقلى من شدة اللذة، وأكاد أشق هدومى من شدة الانشكاح! الأرض حـمـراء كـمـا البطيخ الشليـان.. والزرع اخـضـر خـضـار البلوفر المطبوع فى مكن بلاده. والعشب هنا ينمو بأمر ربى، والشجـر كما مـهندس عبـقرى جمعه وبعثره فى غاية الجمـال، وماء المحيط أزرق كمـا عيون الحليوة، والكلاب كما الذئاب، والحـمـار مـخطط كـمـا البيجامـا الكسـتـور الغـاليـة!.. والفراخ بعضـهـا بـدى وبعضها يتمخطر كالملكة فى ليلة افتتـاح! كأنهـا نعامـة صغيرة، كأنها ست غندورة تتمشى افرنجى فى شـارع الشانزلزيه! والطيور التى فى الجو ليست غربان أعوذ بالله، الطيور هنا نسـور، والنسـر فـارد جناحه كمـا لورد عـايق يتحنجل فى شوارع

لندن. وصقور الله عليها، والصقر يعلى ويعلى وله همات يلف فى الكون ولا يلقى وليف عدله، يموت من الجوع ولا ينزل على رمات!! والعصافير هنا كناريا، والغربان بغبغانات. وشجر الشوارع مانجه وجوز هند وأناناس! والسما هنا صافية كقلب المؤمن، والطبيعة فشر سويسرا وفشر هولندا! وأنا ماشى على الشاطئ أزحف بالشبشب زنوبة.. جلبابى السكروته يهفهف رغم أنه لا يوجد هواء، كأننى تاجر رقيق مفلس جربان غشاش يخشى التوغل فى الداخل، والصديق العربى من خلفى يضع قصيدة فى وصف الطبيعة! ورجل آخر انضم إلى قافلتى، أبيض كما الاوروباوى فى زمانه، ملظلظ ولا واحد خواجا جاء يتكسب فى افريكيا، عادل شريف.. صحفى وبطل تنس ورحالة بحكم عمله فى المؤتمر الآسيوى الافريكى، قافلة كفرانة غلبانة ستواصل رحلتها رغم كل شئ على شاطئ غانا...

❑❑❑

.. والجدعنة انهزمت يا ولداه

هاهى افريكيا بعد طول انتظار، وها هو الشعب الافريكى بعد غيبة أطول! ستجد هنا قشرة على وجه الشعب تركها الاستعمار ولكنها قشرة رقيقة أرق من ورق السجاير، ولكن لا تحاول أن تنزعها، الافريكى نفسه سينزعها لك بعد قليل، وعندئذ ستعرف الأفريكى على حقيقته.

طيب أطيب من الطشطوشى، فنان ولا جمال كامل، شهم ولا ابن بلد مصرى أصيل يرمى جتته فى النار من أجلك، ويخدمك لا يرجو ثمنا، ويبكى إذا شاهد ميتا فى الطريق ويرقص إذا ترامى إلى سمعه نغم يحمله الريح من بعيد.

وصحيح أنه يتكلم الانكليزية ولكن بطريقته ويرتدى الملابس الأفرنجية ولكن على هواه.. البنطلون شورت والقميص مدلدل فوق البنطلون وبرنيطة خوص آخر مزاج، وبايب يتدلى من الفم، ولكن هذا الزى فقط لشغل المكاتب، وللمهابرة طول النهار، فاذا جاء الليل، ويا حلاوة الليل فى افريكيا، خلع الافريكى زيه المزيف وارتدى زيه التمام، بنطلون شورت تمام، وصندل تمام وحرام مزركش ثمين ولا حرام الشيخ مصطفى اسماعيل، حرام يخفى كتفا واحدا والكتف الثانى مكشوف يشبه تمام التمام زى المرحوم غاندى مع فارق واحد ليس فى الحرام ولكن فى الجسم، جسم الأفريكى كما أسد مربرب فى غابة عامرة بالغزلان، كتف الواحد من دول ولا كتف تمساح النيل مرعى حماد والراجل من دول ـ اللهم صل ع النبى ـ طول النخلة، العرض عرضين كما قماش المحلة.. العيون تضرب شرار وتضرب رصاص.. الرقبة كما رقبة تمثال نهضة مصر.. الأكف غليظة وسميكة كما شاويش فى سجن مصر! الرجل الأفريكى هو طرزان الحقيقى، ولكن على طيب، يبدو أن الأقوياء دائما طيبون، والأشرار فقط هم الضعفاء، ضعفاء الأجسام أو النفوس، والنتيجة دائمة واحدة! الأفريكى هو طرزان الحقيقى وابن لندن الشامخة يبدو معه ليس شيتا، ولكنه نسناس، قلبوا الآية أولاد الهرمة، جعلوا طرزان هو الأبيض والأفريكى

هو العدمان الصدمان صاحب المائة علة وعلة! كذابون وغشاشون أولاد الهرمة، أنا أتحداهم جميعا إذا لم يكن الواحد من الأفريكي يفصل من الأوروباوى عشرة! كيف استطاع بتوع أوروبا الصفر العدمانين الدبلانين أن يهزموا عمالقة افريكيا؟ حكمة الله أن بتوع اوروبا عندما هزموا الأفريكان هزموا الجدعنة فى نفس اللحظة، قبل هذه العاركة المهيبة كانت الجدعنة لها قواعد ولها أصول الراجل يدخل للراجل بالباط، الساعد بالساعد، المشط بالمشط، المقلب بالمقلب، الرأس بالرأس، كان العراك والخناق بالمكشوف وعلى عينك يا تاجر، وكان الراجل الجدع دائما يغلب ودائما ينتصر، ولكن العلم الله يجازيه قلب الموازين وشقلب حال الدنيا! لم تعد الغلبة للراجل الجدع ولكن للراجل المتعلم، وكان بتوع أفريكيا جدعان وبتوع اوروبا متعلمين، وعندما دارت المعركة كان النصر للمتعلمين والهزيمة من نصيب الجدعان، وماذا يفعل راجل جدع طويل وعريض أمام راجل آخر مش جدع ولا مؤاخذة ومعه مسدس فى حجم الكف ويقتل مية وألف، ولكن ستر الله أن الموازين لم تنقلب إلى النهاية، فالذى حدث بعد ذلك نستطيع أن نتصوره، فعندما انتقل المسدس من يد الراجل الاصفر الدبلان العدمان المتعلم، إلى يد الراجل الاسمر المتعافى المليان المتعلم، دارت الدوائر على الأصفر العدمان فترك افريكيا وهرب كما أرنب جربان مسلوخ لا يصلح حتى للدبح على ملوخية!

أنا رأيت راجل افريكى فى قرية على بعد كام كيلو من اكرا، راجل تمام طوله متران، وعرض صدره كعرض وسطك، وكتفه كرأس أبى الهول، ولابس حرام تمام، ومعاه فلوس تمام، وداخل حفلة فيها كام ولد عدمان هفتان أوروباى بيرقص! الأفريكى الهمام الصنديد كما عنترة العبد جلس يتفرج، ويشرب تمام آخر تمام، لم يهتز ولم يتحرك، وولد هفتان أبيض من كام كأس ترنح وتدروخ، ونهض ثم جلس ثم نهض ثم جلس ثم نهض ثم طرش! منظر مش تمام، ثم تشاجر ورفع كرسى خرزان أمتن من كرسى الظايط، والاوروباى الذى كان معه خاف فهرب، ولكن الولد الدايخ رفع الكرسى ولم يتحمله فسقط الكرسى وهو معه على رأس الافريكى التمام.. وهتفت فى أعماقى مسرورا كنسناس على الشجرة، يا مساء الجمال،

ستتصهل القعدة وتحلى، الراجل الأفريكى التمام سيرقع الواد الأوروباى علقة ساخنة وستتفرج، وعلى الأفريكى التمام مهمة الانتقام من الأوروباى الأصفر العدمان لعشرة أجيال من العذاب! ولكن الافريكى التمام ركن الكرسى على جانب، وساعد الأوروباى على النهوض وابتسم للناس الجالسين كجنتلمان وشرب كأسا من الويسكى وسكت فى أمان الله! ولكن الولد الأوروباى العدمان الصدمان أخذته الجلالة أكثر.. نهض من جديد وأتجه نحو الأفريكى التمام يضربه، حكمة الله أنه ساعة القضا يعمى البصر.. لو أنا من الولد الأوروباى وهذا الرجل الأفريكى التمام عليه فلوس للعبد لله لصهينت، لو أنا ماشى فى الطريق ولزقنى هذا الأفريكى على قفاى لابتسمت، لو أنا صاحب هذا الأفريكى التمام لعملت له ألف حساب، الهزار معاه بحساب، والظرف بحساب، لأنه لو جاء يوم وتحاسبت معاه بالتمام، لكان أهون منه يوم الحساب!!

المهم، الولد الأوروباوى اندفع يترنح نحو الأفريكى التمام، ورفع يده الممصوصة كفرع مكرونة اسباكيتى، وكانت رفعة مهيبة، ضربه الراجل الافريكى التمام بمشط رجله فطرحه خارج الحفلة، ما رأيك دام فضلك كل العيال الاوروباويين نهضوا كخيل السباق وهات يا رمح فى أنحاء المكان، أنا نفسى خفت أن يظننى الافريكى التمام أوروباوى من أسبانيا أو بالميت خالص من جزيرة مالطة.. تعرف عملت ايه؟ فشخت بقى كأننى اسماعيل يس، لكى ابدو مبسوطا ومسرورا وآخر مزاج، ولكى يظننى الافريكى التمام مولود على هذا الحبور والانبساط، ولكن أنا نفسى كنت غلطان غاية الغلطان، لأن الرجل الأفريكى الطيب لم يكن يريد أى شر بأى أحد! نهض كما ملك فى حفل تتويج ورقص، وحيا الجميع واعتذر للناس أجمعين ولم يكن فى حاجة إلى أن يعتذر!

من أين تأتى الصحة الحديد ولا سباع الغاب للرجال الأفريكان؟ من أين؟ مع أن الاشاعات الهوليودى تحلف وتقسم وتؤكد أن الأفريكى غلبان ولا بتاع يانصيب، فقير ولا هندى، مريض ولا نزيل فى القصر العينى، أنا يا أيها الناس دخلت قرية أفريكى وسط الاحراش مع راجل افريكى طيب اسمه «اصارى» يعرف خمس

كلمات عربى، ازيك وبقشيش، ويا سلام، ومع السلامة، ومش ممكن! الراجل اصارى الطيب كان عسكرى جيش فى بلدنا أيام الحرب لعله واحد من الذين لهفت منهم برنيطة أو عجرته كام زلطة على أم رأسه تحت نفق الهرم.. كان هو منذ خمسة وعشرين عاما افريكى صايع وكنت أنا افريكى أصيع! وعندما نشبت حرب هتلر وموسولينى كان الأخ اصارى فى العشرين من عمره، جته ولا حنفى محمود بتاع كابرى، قوى كضبع شبعان فى غابات موشى، ولم يكن له فى الحرب ـ على رأى مدرس العربى ـ جمل ولا ناقة.. ولا حتى حمار! ومع ذلك عكمه الانجليز مع عشرين ألف غانى شباب مثله وربطوهم فى الحبال، وأخذوهم إلى الشاطئ، وفرزوهم وفنطوهم ولبسوهم عساكر وألحقوهم بجيش الحلفاء! تجارة الرقيق اشتغلت تانى على ودنه ولكن على نمط آخر! زمان كانوا يخطفون الافريكان للشغل وفى القرن العشرين خطفوهم للحرب وزمان باعوهم للتجارة! وانخطف من افريكيا زمن الحرب العالمية الثانية خمسة ملايين راجل عاد منهم للوطن عدة آلاف لا تزيد عن مائة ألف.. يمكن! والباقون ماتوا فى الرمال وفى الأدغال وأهلكهم البرد فى أوروبا وأكلتهم السحالى فى أحراش آسيا.. ولا حمد ولا جميل ولا حول ولا قوة إلا بالله! الأخ العزيز أصارى كان شابا كالوردة عندما اقلعت به سفينة بضاعة جربانة فى أمسية صيف من ميناء اكرا إلى الشرق الأوسط، كانت معركة العلمين شغالة، والخواجات الإنجليز مات نصفهم من صهد الصحراء ومات النصف الآخر من صهد الألمان ! والعساكر الانجليز مثل التين البرشومى خرعين وممهمطين، وكان لابد من رجالة مثل اصارى ليصكوا الألمان صكا عنيفا ! ودخلت الباخرة ذات مساء ميناء الأسكندرية وعليها شحنة عساكر، وحلقت فوقها طيارة إلى ألمانى ناصحة هبدت المركب طوربيد ونسفتها وطيرت العساكر الأفريكى اشلاء، ولكن أصارى وعشرات آخرين استطاعوا الإفلات من جحيم الطوربيد وسبحوا حتى الشاطئ، وأقام أياما فى مستشفى عسكرى ثم سحبوه إلى كوم حمادة فى البحيرة، وكان هناك كامب أفريكى للتدريب وبعد أسابيع قليلة سحبوه من جديد إلى الصحراء، ومعركة العلمين كانت شغالة، عجنة سودة خرج منها أصارى حيا، وخرج فيها الألمان من العلمين، ولكن أصارى لم يتركهم، زحف خلفهم حتى تونس وعبر البحر

إلى إيطاليا وقطع أوروبا كلها حتى دخل برلين! وعندما احتفلوا بالهدنة فى برلين عزفوا أناشيد كل الدول المشتركة فى النصر إلا نشيد أصارى، لم تكن غانا على الخريطة، ولم يكن أصارى إلا مجرد أفريكى زنجى، يخدم البيوت أو يخدم فى الحرب ويأخذ فى النهاية حسنة ويتوكل على العزيز الجبار! وتوكل عمنا أصارى إلى مصر ثم نقلوه إلى كامب فى الجيزة ليشم الهواء ويتمنجه! ولكن أصارى كان يحب كوم حمادة، تركها صحيح ولكنه ترك قلبه هناك، وهو مسلم من أشانتى وتزوج مسلمة من عرب البحيرة، وانجب منها ولدا، ولكنهم خطفوه مرة أخرى ذات مساء ليشحنوه فى مركب بضاعة ليعودوا به إلى أرض الوطن، وفكر اصارى عميقا والمركب واقفة على رصيف اسكندرية، هل يترك الزوجة والطفل فى كوم حمادة ويرحل إلى أكرا؟ أم يترك الأهل والخلان فى أكرا ويبقى مع الزوجة والطفل فى كوم حمادة؟ أصارى رغم التفكير العميق لم يستطع أن يحسم الأمر فى النهاية، تحركت المركب وغادرت الرصيف والميناء وبحر الاسكندرية وهو لا يزال يفكر.. وعندما وصل إلى مضيق جبل طارق والمركب طالعة على المحيط الأطلنطى استقر على رأى: لا مانع يرى الأهل والخلان فى اكرا ثم سيعود ليعيش مع الزوجة والطفل فى مصر! وعندما شاهد اصارى شاطئ غانا بعد طول غياب بكى ولا معددة فى ميتم وأنا قتيل المحبة ياجدعان لكين الوطن غالى، لفيت ما خليت بلاد الناس لكين الوطن غالى على رأى يوسف شتا مؤلف ومطرب شعبى! أصارى عاد إلى بلاده وكانت عودته أحسن، لو أن كل الأفريكان الذين خرجوا أيام الحرب استقروا فى الخارج لاحتاجت افريكيا إلى حرب عالمية أخرى لكى تتحرر، هؤلاء العيال الشجعان، عساكر افريكيا الذين انسلخوا فى فرن الحرب ستقوم على أكتافهم أعنف وأشرف حرب لتحرير القارة! الأفريكى الذى كان محبوسا كالفأر فى بلده لا يعرف استراليا من ايطاليا، لف ودار وشاف بلاد الله وخلق الله وحارب وانتصر على رجل أوروباوى آخر، أبيض وملظلظ، ألمانى صحيح ولكنه زى الإنجليزى والفرنساوى والبلجيكى وأحسن، على الأقل الألمانى هزم الدول جميعا والأفريكى هزمه.. بين الحطام والاشلاء والجثث المتناثرة اكتشف الافريكى الطيب نفسه، وجد

هم عدة ألوف من الرجال أبناء افريكيا العظيمة عادوا الى الوطن الأم مدربين مسلحين مقاتلين شافوا الهول وخاضوا حرب الادغال والصحراء والجبال وتعلموا الكفت نفسه، خبرة ما أروعها ستحتاجها أفريكيا فى قادم الايام لتتحرر، وهؤلاء الرجال البواسل سيكونون قادة جيوش نكروما وأحمد سيكوتورى ولومومبا وكينياتا ودكتور باندا، ولكن هذا حديث آخر يحتاج إلى شرح طويل، وستعلمون عندئذ كم كانت الحروب شرا وخيرا، نقمة ونعمة، حركة وبركة! المهم الراجل أصارى عسكرى الحرب السابق أخذنى بالحضن فأنا من بلد الحبايب، وسحبنى من أيدى وفرجنى على غانة، من ونيبيا على شاطىء البحر فى الجنوب، إلى أكسومبو على شاطىء البحر فى الشمال، ومن أكرا إلى خماسى فى الداخل حيث الاشانتى والكاكاو وغابات الوحوش الكواسر! وفى لفة من دول سحبنى من أيدى على قرية أفريكى داخل غابة وعندما وقع بصرى على القرية كدت أبكى، أنا طالب من الله ولا يكتر على الله أن تصبح القرية فى بلدى مثل القرية الافريكى.. تذكرت قريتنا قناطر القرنين منوفية، ومعدية جدى الشيخ معوض، وشجرة الجميز التى عند ستى عديلة، وبيت الراجل خميس المخوخ بتاع الترمس، ومكنة طحين سوارس أفندى، والبيوت من الطين مدهونة ومن روث الجاموس مدهوكة، ورائحة تغم القلب وتسد النفس وقرف أزلى وعيال مرضانين هزلانين قرع أكثرهم عمى، يتمنى الواحد منهم أن يهرب من القرية إلى مصر أم الدنيا ليأكل عيش سخن وفول مدمس وطعمية، أحلام لا تتحقق للأكثرية العظمى منهم، فيبقى فى القرية ملوما محسورا وعندما يبلغ الأربعين يصبح هضيما عضيما يعنى عضم!! وتراه فتقول له ياجدى، ويموت فى الخامسة والأربعين ويكذب عليك فيقول لك أنه رأى هوجة عرابى وموكب افندينا اسماعيل والبنت السنيورة ملكة فرنسا!

القرية الأفريكى ياهوه وسط الأحراش فى منطقة مفتوحة، البيوت أكواخ تصميم المهندس الأفريكى العبقرى الذى تلقى العلم فى أدغال أفريكيا، علمته الطبيعة وألهمته الحق فلم يشيد بيوتا كعلب السلمون ولم يصنع قرية كمستشفى أم المصريين! البيوت على حسب الجو، والبناء ليس مجرد طوبة على طوبة، ولا مونة

بزلط وأسمنت، ولكن البناء قطعة من النفس إن فسدت القطعة فسد الأدمى و...
تاريخك وأصلك وأنت تأخذ من المبنى وتعطيه، وكل بلد ولها سوكما تقول ...
وسلو افريكيا هو الاكواخ.. ولكن المهندس الاوروباوى يريد أن يخرب النفس
الأفريكى، فى المدن أقام لهم مبانى ولا هيلتون، أدوار بعضها فوق بعض كأنها
سراير بحارة فى مركب جاز! ولكن الأفريكى الأصيل فى الغابة رفض أن يتأورب!
الكوخ قطعة من الفن الرفيع، تدخله فى عز الحر فتشعر انك على ساحل الريفيرا،
وتدخله فى عز البرد فتشعر أنك فى أفريكيا وتدخله ساعة المطر فلا تسمع إلا
عزف الماء على سقف الكوخ لأن المهندس الأفريكى العبقرى صمم الكوخ حسب
الجو، جدران الكوخ من الليف، وعمدانه من شجر جوز الهند، وسقفه من الخرزان
البامبو، مقوس حتى ينزلق المطر عليه والفرش من جلد الحيوان وفى أيام الصيف
الحارة لا ينام الأفريكى فيه، يفرش جلد غزال ناعم يجلب الطراوة اللازمة وينام
فى ساحة القرية، الكل ينام هناك، وفى ليالى الشتاء يفرش الأفريكى جلد فهد أو
جلد نمر وينام داخل الكوخ ويتقلب! وبين الكوخ والكوخ عشرة أمتار وهو معرض
للشمس والهواء من كل جانب، والقرية كلها دائرية وحدائقية يعنى كلها حدائق.
والعيال كما أولاد الدبة، عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، سمان كما البط المزغط، لطاف
كما النجوم الزاهرة! إذا جاعوا فالموز على قفا من يشيل، الموزة كما الفقوسة فى
بلدنا، والمانجة على الشجر حايرة تطلب الأكال! وجوز هند يأكل ويشرب ويحمد
البارى المتعال والعيل اللى فى اللفة يستطيع أن يصطاد أرنب، والواد الصبى
يصطاد غزالا، والواد الفتى يصطاد جاموسة يذبحها ويسلخها ويأكل فيها كما
أبونا الغول!

الصحة إذن عال وبمب والحمد لله، والطعام وفير وكثير وكله دسم وزفر على رأى
ستى.. والطبيعة مفتوحة والوزة قبل الفرح مدبوحة على رأى عمنا الكبير بيرم
التونسى!

فى هذه القرية أنا رأيت العجب، بنت بيضة كما الحليب، مخنصرة ولا السنيورة
الحلوة، شعرها أصفر ولكن مجعد! شفايفها سمينة وبضّة، عيونها كما عيون

الغزالة الحلوة! والبنت معها سيارة، ولها كوخ، وعندها ضيعة ولكنها مع ذلك صايعة وضايعة، مزجورة مهجورة من الافريكان انها بذرة فاسدة تركها راجل أوروباوى تزوج من سيدة افريكية تزوجها وماتت ومات هو الآخر بعد الاستقلال، ولكن البنت البيضة فضلت الحياة فى القرية، معها ستها تمام كستنا الغولة، وهى وستها تعيش فى كوخ واحد، البنت كانت فى اسكتلندا مع ستها الأخرى، ستها الأخرى تعيش فى جلاسجو، بيضة كما الشمع، مربربة كرغيف عيش قمح روسى، عيونها زرقاء كما المحيط، ولكن البنت الأفريكية حنت إلى الأرض التى قفزت من بطن أمها عليها فعادت إلى أفريكيا، عادت لا هى أفريكية ولا هى اسكتلندية ولكن بزرميت وخليط وحاجة لا تسر انجليزى عدو ولا أفريكى حبيب.

والبنت لها مشكلة، المرأة فى افريكيا محترمة ومقدسة، هى أصل القبيلة وهى أصل الحياة، والواد يرث خاله ولا يرث أباه، والمرأة تخرج للعمل والرجل يجلس مجعبز فى الغابة، وإذا كان الاقتصاد هو محرك التاريخ عند ماركس فالمرأة هى محركة التاريخ فى بلاد الافريكان!

المرأة هى الغاية وهى النهاية وهى البداية وهى المصير! ولكن بنت افريكيا الخليط محتقرة ومهانة.. انها تشعر بأنها أقل من امرأة.. بأنها رجل. وهى تريد أن تكون امرأة. العيال الافريكان يشتهونها ولكن لا يتزوجونها ولأنهم اخذوا منها موقف عدائى فقد أخذت هى الأخرى نفس الموقف. ومادامو يشتهونها فستمنع نفسها عليهم، ولكن - بنت المجنونة - ستمنح نفسها لكل الرجال الآخرين.. وبشرط أن يكون رجلا أبيض. وعندما هبطت القرية ذات عصرية طرية كانت البنت هناك تحت شجرة جوز هند تشرب بيرتها وأحزانها.. وفى النسيم العليل بكت واشتكت وفضفضت بالكثير.. أزاحت عن نفسها الأحزان وألقتها فوق رأسى. أنا الحزين ابن الحزينة أصبحت مخزن للأحزان! بعد خمس سنوات من الوحدة أصبحت (ميوريال) مومس ولكن بالمزاج وهى الآن تنتقل من كوخ رجل أبيض إلى كوخ رجل أبيض فى وضح النهار. فاذا عز الرجل الأبيض، انتقلت ميوريال من كوخ رجل أسود إلى كوخ أسود ولكن فى الظلام! عيشة مهببة ومغبرة ولكن هكذا كتب

ـى ميوريال أن تدفع الدين الذى لقيته أفريكيا على يد أقارب نصفها الأبيض
وعندما حان وقت الرحيل من القرية الافريكى الحلوة خرجت ميوريال تودعنا
مزهوة فنحن على أية حال بيض وإن كنا فى بياض عجين الردة! وعند باب القرية
لأفريكى امسكت البنت بجلبابى السكروتة تكاد تمنعنى من الخروج، البنت
لمسكينة تحلم كأنها ممثلة فى فيلم من انتاج هوليود! وعندما سحبت هراديبى
منها ووليت فرارا من وجهها وقفت على تل قريب تلوح لنا فى جنون كأنها بقايا
مركب غرقانة فى جزيرة ونحن فى مركب انقاذ تمخر البحر من بعيد!

ميوريال المسكينة، يا بنت أوروبا القاتلة ويا بنت أفريكيا الضحية، الله يتولانا جميعا برحمته والله معها ومعنا وإياكم...

❐❐❐

أميــرة .. ولكــن فــى المنــام..

إذا كان الإنسـان حيوانا ناطقا، ففى بلاد الافريكان الإنسان حيوان راقص.. الرقص هناك على «البهلى» وعلى عينك يا تاجر واللى ما يتفرج يشوف. الراديو يرقص كثيرا ويتكلم قليلا، والأخبار هناك على فترات بعيدة والكلام بحساب. وتمثيلية واحدة فقط فى اليوم ثم الموسيقى الراقصة على ودنه، وحتى التمثيلية الواحدة بطلها راقص وغلبان وصدمان وواقع فى حب رقاصة، وليس الانسان وحده هو الذى يرقص، كل شئ هناك يرقص حتى الشجر والبيوت. فعندما تهب الريح من المحيط الأطلسى على الساحل تتراقص أشجار جوز الهند الجميلة الرشيقة فتبدو وكأنها بنت حلوة شعرها منكوش! وبيوت الساحل كلها أكواخ، وهى الأخرى ترقص عندما تهب الريح فيخيل إليك أن ساحل غانا كله حاضر فى حفلة راقصة ليس لها مثيل. وفى الليل يتحول ساحل غانا كله إلى فرقة موسيقية تصدر ألحانا غاية فى الغرابة وغاية فى الارعاب. ملايين من الضفادع وكل ضفدعة وضفدع فى حجم القطة. وهات يا شخر ويا نخر وبصوت أعوذ بالرحمن الرحيم!

ولكن الغريب أنها متناسقة يضمها إطار من الهارمونى، وتسمع قطعا موسيقية غاية فى الحلاوة والجمال وكأنها الفرقة الضفدعية بقيادة أحمد فؤاد ضفدع!

كنت فى شارع مرة أسأل عن مكان واتجهت الى شاب مهيب المنظر كأنه ضابط فى جيش هانيبال، له لحية ولا لحية ثائر من كوبا، محترم ولا البابا بيوس، وعندما بدا يجيب على سؤالى، انبعثت الموسيقى فجأة من جهاز راديو قريب فأهملنى وأهمل سؤالى ونزل رقص يا ميت ندامة كأنه جعان جوع الإبل لم يذق رقصا منذ عام.

وفى وينيبا أجمل وأحلى قرية على الشاطىء الغربى لافريكيا رأيت عمالا فى عز الحر، عرايا كأنهم على بلاج، والشغل داير والرقص داير فى نفس الوقت. ورئيس العمال ماسك لهم الواحدة، والدق على الحجر متناسق متجانس يعزف نغمـ

غاية فى الحلاوة والهداوة والجمال . رئيس العمال ـ كما عرفت ـ ليس أحسنهم عملا ولكن أحسنهم رقصا، وهم بدونه لا يعملون.. والصوت كما صوت الصعايدة الجدعان أبناء بلدى، أتمنى على الله أن تسافر إلى أفريكيا بعثة فنون شعبية وستكتشف العجب العجاب. ذات صباح جميل استيقظت من نومى على أصوات هادرة صادرة من قلب الغابة . كان اليوم عيد فى وينيبا. وفى هذا العيد يعود الافريكى إلى طبيعته. يخلع ملابسه ويرتدى ملابس الأجداد، وسترى فى المهرجان نفس المناظر التى تصورها هوليود على أنها أفريكيا اليوم.. الوجوه المخططة بأبيض وأحمر، والعظم الذى على المنخار، والريش المدكوك فى الشعر، والملابس جلد غزال وجلد حمار، والحراب عليها جماجم وعليها جثث طيور! مناظر هوليود الكذابة ليست إلا ذكرى يحتفل بها الافريكيون مرة كل عام. المهم أننى استيقظت ذات صباح جميل على أصوات هادرة صادرة من قلب الغابة، وانخلع قلبى وأسرعت دقاته لما سمعت. أقسم لكم وأحلف بكل كتاب أن الصوت شدنى إلى القاهرة وإلى الجامع الأزهر صباح يوم العيد الكبير، نفس التراتيل. نفس الأنغام، كلكم، لابد تعرفونها، وكلكم لابد تحفظونها «الله أكبر كبيرا، والحمد لله بكرة وأصيلا، لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده».. الكلام طبعا مختلف، والمعنى طبعا يختلف، ولكن النغم واحد، والصوت يتردد فى أرجاء الغابة، ورجع الصوت يرتعش فى جو القرية، كما تنداح مياه بحيرة سقط فيها حجر كبير! أغرب شئ على هذه الأرض أن البشر لايختلفون كثيراً كلهم من آدم وآدم من تراب، الاختلافات بسيطة ويسيرة وغير ذات وزن كبير. ولكن بعض البشر استغل الفرصة فلهف امتيازات بسبب هذه الفروق. البعض خطفوا السود وباعوهم فى المزاد، وخطفوهم وصدّروهم لوش المدفع فى الحرب، وخطفوهم وأخذوهم إلى بلادهم ، ليصبح البيض سادة والسود كما جرابيع الصحراء! أى فرق بين الأسود والأبيض إلا كما الفرق بين المرور على الشمال فى انجلترا وعلى اليمين فى مصر؟ هكذا سألت العبد لله البنت القمحية الشقية مارسيل فى حفل راقص كبير فى أكرا. وأنت لا تلتقى بالشعب الافريكى ولا تعرفه إلا فى حفلة

رقص. والرقص هناك ليس حفلة ولكنه شئ مقدس، ولأنه شئ مقدس فله قواعد وله أصول وله مواعيد كما الصلاة، لا تتأخر دقيقة ولا تتقدم لحظات! يوم السبت بعد المغرب تتوقف الحياة كلها ليبدأ الرقص، والذى لا يرقص فى غانا كالذى لا يصوم رمضان فى مصر. قد يوجد من لا يحسن الرقص ولكنه لا يجرؤ على الاعتراف.. حتى السؤال نفسه إذا وجهته إلى إنسان منهم فهو عيب لا يليق! وتذكرة الدخول إلى المرقص بجنيه أخضر مقرقش كما السميط الطازة.. هذا إذا كان الراقص وحده، أما إذا كان الراقص معه بنت ترقص فالدخول بنصف الأجر... ذلك أن المجمع الافريكى مجتمع متحضر فشر مجتمعات اوروبا، ولا تستطيع أبدا أن تجد شلة رجالة بشوارب مع بعض، أو شلة نسوان بكعوب عالية مع بعض. الرجل والمرأة جنبا إلى جنب، فى الغابة، وفى المصنع، وفى المكتب، وفى الرقص.

والبنت مارسيل افريكية صميمة، بنت بلد ومثقفة، وحلوة كما حبة مانجه عويس، لونها كما لون ثمر الدوم، جسمها كما الاستك، شعرها أكرت صحيح ولكن مرفوع إلى أعلى، آخر موضة وآخر مزاج. ظلت ترقص مطهومة لمدة ساعة، لو حصان سبق يجاريها لطب ميت من شدة الرهقان. والبنت مارسيل الله صلى ع النبى صحيحة البدن كما مهرة مرتاحة وشبعانة فى يوم مهرجان! ومع ذلك فحياتها كانت أشقى من حياة العبد لله. أبوها مات وهى على عتبة المدرسة الثانوية، وأمها هى الأخرى آثرت الرحيل إلى دار البقاء بعد زوجها بثلاثة أعوام.

واحتارت مارسيل واحتار دليلها، ثم خرجت من المدرسة إلى الشارع، وسرحت فى أكرا بموز مشوى، وحكمة الله أن الموز هناك ينشوى كما نشوى الذرة على شارع الكورنيش! وكانت غانا تغلى كلها وتئز وتشتعل بالنار. الثورة تشمل الغابات والجبال والوديان، ومارسيل تسرح وراء الرغيف وتطفح الكوتة من أجل لقمة العيش. ولكن الشقاء لم يمنع مارسيل من الانتظام فى صفوف الثورة ولم تمنع الثورة مارسيل من العودة إلى المدرسة.

هكذا أصبحت مارسيل ثائرة وتاجرة وتلميذة... ولكن مارسيل استطاعت أن تصنع كل هذا، وأن تجمع بين التجارة والثورة والمدرسة فى آن واحد. ثم قدر لها

فجأة أن ترتاح، مات خالها وكان على شئ من اليسار. وبالنقود القليلة التى ورثتها أصبحت مارسيل صاحبة دكان فى «الكنجزاوى» وتفرغت للمدرسة وتركت الدكان لشقيق كان يصغرها بأعوام. وتخرجت مارسيل من الجامعة، وسافرت إلى انجلترا وتخرجت من جامعة لندن وعادت لتملأ الحياة ضجيجا وعجيجا وأملا بغير حدود. البنت القمحية الشقية مارسيل الجميلة لم تتزوج بعد.. مع أن الرجالة فى افريقيا على قفا من يشيل! وأى رجل هذا الذى يرفض أن يشيل مارسيل على أم رأسه؟ ولكن لسبب غريب مارسيل لا تريد أن تتزوج. كانت دائما تخشى الزواج، لأن الزواج يعقبه عيال، وقد يجئ الموت، وعندئذ يا ميت ندامة على العيال وعلى اللى خلفهم!

هكذا حدث لمارسيل فى سالف الأيام، وهى تدرك طعم الشقاء وتعرف مذاق الضياع، ولذلك فهى لا تريد أن تطعمه لمخلوقات فى علم الغيب. وهى تعتقد أن وجودهم دائما فى الغيب خير لهم وأبقى! على أية حال، وعلى كل حال، مارسيل الشقية القمحية التى تعمل فى النهار وترقص فى الليل، وجه حلو من وجوه افريكيا، وجه صلب رغم التقاطيع الجميلة، وقلب شجاع رغم الرقة والحنان، لهطة بسبوسة ما أحلاها وما أعرض وأعمق حياتها! ولكن ما أبعد الفرق بين مارسيل وكمفورت، وكمفورت كلمة فى القاموس الانجليزى معناها المريحة. التقيت بالست المريحة إياها فى حفلة رقص. جالسة على الكرسى رجل على رجل ومعنزة كما شيخ غفر متعين حديثا!.. وجهها بزرميط، لا هو أفريكى ولا هو جريكى ولا هو أى شئ.. عيون أشهد وأختم وأبصم أنها ولا عيون البقر. عيون تضرب شرار وتضرب رصاص، عيون آمرة كاسرة ولا عيون ملك مجنون على قبيلة آخر تعب! ومناخير زى الكوز ولكن فيها شئ. وشفايف.. لا، ليست شفايف ولكن شفاتير، وكل شفتورة وشفتورة كما العيش الشمسى بتاع زمان! وشعر كما شوك نابت شيطانى فى رأس صلعاء! وجسم.. سبحان العاطى الخلاق، مفصص، معضل، مدكوك، موزون. آخر ضبط وآخر تمام.

والبنت كمفورت ترطن بالانجليزى وبطريقة بتوع لندن تمام. وملابسها ليست

ـى ما يرام، ملابس تكشف أكثر مما تخفى، والبنت نفسها لا تعرف الفرق بين التحرر والانحلال. البنت جاهلة وقوية، وعينها غليظة كما كانت تقول ستى فى سالف الزمان! وعند الرقص رقصت ولا فراشة، ودكت الأرض ولا حصان، و... ـى رقص معها ولم يصبها أى شئ من الدوخان!

البنت جالسة مشمئنطة قرفانة تحتاج إلى غلق لمون بنزهير، أو غلق حامض ـى رأى اخوانا فى لبنان!

البنت أمها أميرة ـ هكذا قالت ـ وهى بالتالى أميرة، ولكن التطور الكاسح الماسح فى أفريكيا اليوم بطط تحت رجليه كل الكلام الفارغ الذى كان محترما ومقدسا أيام زمان! وأكم امراء كانوا فى افريكيا زمان، أكم ملوك كانوا فى الأيام الخوالى، كل واحد كان صايع وضايع كابس على أنفاس قبيلة داخل الغابة وعامل أميرا! كل صعلوك مهتوك راكب على أعناق حفنة من الناس وعامل ملك الملوك! البنت لا تزال تعيش فى الماضى، ولذلك فهى تحتقر افريكيا من أعماقها. هى ليست افريكية الا بالمولد، ولكنها تعيش فى لندن من زمان. سألتها فى أى مكان فى لندن كانت تعيش؟ لم تستطع أن تجيب على السؤال، فزاغت وقالت.. فى اسكتلندا والعبد لله لم يذهب إلى اسكتلندا، ولذلك صدقت العناوين التى ذكرتها. كذابة هى قطعا ومهروشة الدماغ وأميرة.. ولكن فى المنام! وهى نجمة مشهورة فى اسكتلندا، الصحف تنشر صورها وتنشر أخبارها، ويتردد اسمها فى الراديو فى نشرات الاخبار، وهى تعمل فنانة فى بلاد الانجليز، واكرا لا تعجبها لأنها قرية، وأفريكيا ليست على مزاجها، والفن كله والعالم كله والنعيم كله يا قلبى.. فى بلاد الانجليز!

سألتنى عن مصر باستعلاء، هل فيها تماسيح؟ هل تعيشون فى الصحراء؟ وتحسست ـ لا مؤاخذة ـ مداسى لينوب عنى فى الجواب!

راقبت البنت المعنزة كثيرا وفى كل مرة كان يزداد ايمانى بأن صواميل مخها مفكوكة ومسامير عقلها محلولة، وكل أبراج التفكير فى رأسها ذهبت مع الريح!

سألت مارسيل عن كمفورت فكشفت لى عن سرها . البنت إياها صايعة بنت صايعة ولكنها بالنسبة لبنات أفريكيا حلوة بلا جدال! اشتغلت فى أكرا خدامة عند واحد اسكتلندى مهروش الدماغ، عوج رأسها فعوجت مشيتها . أصبحت معنزة كما الغراب. وعندما دقت طبول الثورة فى أفريقيا سحبها الاسكتلندى معه إلى هناك. وأن تكون البنت خدامة فى اكرا شئ معقول، ولكن فى اسكتلندا يصبح الأمر... يا حفيظ! وتعرفت البنت المهروشة إلى ولد من جاميكا كما الواد بتاع كريستين كيلر.. معه مطوة مفتوحة على الدوام، وعنده ملهى ليلى فى بدروم تحت الأرض، تجتمع فيه كل مساء عصابة من الصيع والانطاع! وسحب الولد الجاميكاوى البنت من بيت أسيادها إلي الملهى الليلى وهات يارقص كل مساء. ومضى عام وتصورت البنت نفسها رقاصة ولا جوزفين بيكر فى زمانها! أخذت تتمرد وتتمرد ثم هجرت الملهى واسكتلندا كلها وذهبت إلى لندن تبحث عن عمل فى حى سوهو الشهير! ورحب الجميع بها كخدامة ولكن ليس كرقاصة. ولما انقفلت جميع السكك فى وشها، هجرت لندن وعادت إلى أكرا تبحث عن مكانة تحت الشمس وليس عن مكان! مؤهلاتها كلها نظرة ازدراء لكل ما هو أفريكى، ولسان معووج يرطن كما انجليزى مولود فى برمنجهام، مشمأنطة ومعنزة وجاهلة أجهل من حمار. فلما فشلت فى أكرا اخترعت حكاية الأميرة، وراحت تتردد كل مساء على المراقص تبحث عن واحد غشيم مستعد لتصديق كل شئ.. من أول سمو الأميرة إلى الفنانة الكبيرة صاحبة الصيت الذائع عبر البحار! وهى فى كل ليلة تجد رجلا يصدقها أثناء الظلام، وفى شمس النهار يكتشف انها أكذب من مسيلمة، وتكتشف هى أنه أمكر من ثعلب غيطان المنوفية، وهكذا تمضى الحياة فى أكرا الليل كله فى المراقص، والنهار بطوله فى الفراش، ولقد كانت كمفورت فى البداية امرأة صايعة فأصبحت امرأة دايرة، وستظل تدور حتى تسقط من فرط الإعياء!

كمفورت الصايعة الدايرة ليست وجها من وجوه أفريكيا ولكنها جزء من قفاها! والبنت كمفورت ليست حالة شاذة فى افريكيا، ولكنها مخلفات الحكم الأجنبى هناك. مضى الاستعمار خارج أفريكيا وترك بصماته على وجه الحياة. أنا شفت

بنت اسمها أودرى عاشت فعلا فى لندن ١٧ سنة. هل تعرف العيال الصيع بتوع زمان فى مصر؟ أبناء الناس المتريشين المليانين الذين كانوا يسافرون كل عام للاستشفاء والعلاج. والذى يذهب الواحد فيهم شهرا واحدا إلى فرنسا ليعود ببرنيطة وبايب وصوت مسلوخ كما صرصار يصوصو فى الظلام؟! هل تعرف أثرياء الحرب، الذين استولوا على غنائم من الجيش الانجليزى أكثر مائة مرة من الغنائم التى استولى عليها الألمان؟ هل تذكر تجارة الخردة والكارتة والازايز الفاضية ومتعهدى اللحوم والبيض والعيش للمعسكرات؟ أنا أعرف واحدا منهم كان يسكن فى حارتنا، وهى حارة متواضعة الناس فيها إذا أرادوا شم الهوا طلعوا فوق السطوح لأنه ليس فيها بلكونات! هذا الرجل الغلبان مثل حالى عندما نشبت الحرب اشتغل متعهد كارتة، وبالعربى الفصيح اشتغل متعهد زبالة فى المعسكرات. بعد سنوات أصبح الواد ابن حارتنا راجل غنى تمام، خلع الجلابية والشبشب وارتدى بدلة وقميص حرير وكرافتة انجليزى آخر طراز. حكاية الرجل هينة ولكن حكاية مراته هى الحكاية اللى عليها القصد والنية، مراته أم ملاية لف وشبشب زحافى، وقمطة على الجبين، وكام عيل مسلوع معلول ماسكين فى طرف الملاية حتى لا تهرب الأم منهم وتزوغ. المرأة إياها خلعت هذا كله، واشترت فستان موضة، ودهكت وشها جير، ودهنت شفايفها أحمر قوطة، وكانت تدخل حارتنا تقول للستات أنا مستأسفة بدلا من عواف! ولم يكن أحد فى الحارة يدرى لماذا هى مستأسفة، ولماذا تدهن نفسها بكل هذه الألوان حتى كأنها أراجوز يتفرج عليه العيال !

الست أم ابراهيم هذه، هى الخالق الناطق الست أودرى الافريكية التى التقيت معها ذات مساء فى بيت أنيق على الساحل الغربى فى افريكيا. الست أودرى عاشت ١٧ عاما فى لندن صحيح، جرسونة فى محل أكل وشرب على رأى شندى فنان بلدنا، وفى لندن التقت برجل افريكى طيب كان يطلب العلم هناك. أحبت أودرى فى الرجل علمه، وأحب الرجل الطيب فى أودرى طريقة إعدادها للطعام وتزوجا وعادا إلى أفريكا. الرجل مثقف فعلا وطيب فعلا وابن حلال مصفى.

والست أودرى لا تريد أن تنسى الـ١٧ عاما فى لندن.. شكلها لا يفترق كثيرا عن شكل العبد لله، أقصد أننى أحلى وأجمل. ومع ذلك فالبنطلون محزق على العظام، وجهها ـ استغفر الله ـ كصفيحة قديمة مطبقة من كل ناحية، ومع ذلك فالبلوزة تكاد تكشف ليس عن أكتافها ولكن عن بطنها، والست أودرى عندها عربية وهى تسوق، مرتب زوجها الطيب ضائع على البنزين والويسكى والبناطيل. ولأن زوجها واقع فى دباديبها حتى صلعته فقد آثر أن يستلف. والسلف تلف والرد خسارة. وهات يا سلف حتى صار أشهر سليف فى بلاد الافريكان، ولما انسدت أمامه سبل السلف تحول من سليف إلى نصاب.. كتب شيكات بلا رصيد، وباع أرضا وهمية، واتسعت أعماله أكثر فأصبح يصدر لتجار فى الخارج بضاعة فى الخيال، وانكشف الرجل الطيب فى النهاية ودخل السجن. وقضى فى السجن شهورا طويلة ثم خرج ليجد كل شئ على ما يرام. البيت مفتوح وعامر، وحساب النور مدفوع، والسيارة أصبحت أكبر وبنزينها أصبح أكثر، شئ واحد تغير فى البيت، لم تعد الست حرمه وحدها أصبح لديها عدد من الصديقات على كل لون، وعليهم عدد آخر من الأصدقاء من كل ملة! وغطرش الزوج وصهين، فالأكل والحمد له موجود. فراخ فى حجم العجل البتلو، وحمام كما النسور، والويسكى بالصندوق، والفلوس كما القمح فى موسم الحصاد. وهكذا تحول الرجل الطيب إلى رجل طيع. ولقد تعرفت على أودرى بالصدفة، وكانت نظرة فابتسام فسلام فرغى أزلى، فهى أيضا حريفة كلام وزكريا الحجاوى بالنسبة لها مجرد مبتدئ ناشئ يستحق الجلد على ظهره! والبنت قبيحة وسليطة ولسانها كما الكرباج. كنا على ساحل المحيط هربا من لهاليب النار. المحيط نفسه حران وعرقان، وحكمة الله إن كل النساء على الشاطئ عواجيز نكاريش وأوحش من العبد لله ويقرفوا الكلب الجربان! هؤلاء هم نساء الطبقة الهاى لايف وهى الطبقة التى اغتنت وتريشت بعون الاستعمار، تحويش العمر كله نازلين فيه بعزقة على البطالة والراحة وشاطئ المحيط. الست أودرى رغم الوحاشة والعظام النخرة كانت تبدو جميلة وسط هذه الباقة من البقر الهولندى السمان! ولكن أكون كذوبا ابن كذوبون لو قلت لكم أن كل النساء كانوا فى حجم

سيد قشطة، وحشين كما شيتا فى أفلام طرزان. فجأة هبت علينا حسناء كـ الحربة المسنونة، جسمها مشدود كما الغربال، المايوه فى حجم منديل اليد. كل شئ ظاهر وواضح وعلى عينك يا غلبان! سبحان الله، جسم الست فن ولا فن الالحان. الست كما قطعة موسيقية من وضع شتراوس والست الطعمة تترك أشهى طعمة فتمشى تتقصع كما التختروان، ليس على الجلد كله خدشة ولا هيشة ولا لطشة. كأنها مصنوعة من باركيه أسود غاية فى النعومة واللمعان. كأنها عربية إنسيابية مضروبة بدوكو أسود شغل بلده آخر طلاوة وحلاوة وجمال. قطعة لحم فقط أعلى الذراع مكان التطعيم بارزة قليلا فى الجلد كله.. ولكنها ليست منهوشة ولكنها مختومة فقط، كأنها فخذة بتلو خارجة من السلخانة وعليها ختم الدكتور، ورأت أودرى الخبيرة اننى أنظر وأدقق وأكاد اخترق بنظراتى التى كالرصاص حتى الجلد والعظام! ودعتنى السيدة أودرى إلى البيت ولبيت عملا بالقول المأثور: إذا دعيتم فاستجيبوا، ودخل علينا شحط جبلى سلم وجلس والست أودرى لا تكف عن الكلام المكشوف، وبعد ساعة من الهزار قدمتنى للشحط الجبلى، وقدمت الشحط البلدى للعبد الغلبان، ووقع قلبى فى ركبى. فالشحط اياه جوز الست أودرى وسبعها المغوار. وهتفت فى أعماقى يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف، فلو أن هذا الشحط البلدى اياه لهفنى زغدة ولو على سبيل الهزار فحتما سيكون قبرى هناك! والست أودرى الله يخيبها لم تسكت ولم تكف عن الكلام إياه، العكس هو الذى حدث، تمادت وتبجحت، والبنت والحق أقول مثقفة من منبع خاص. عندها مكتبة صحيح، وفيها كتب صحيح، ولكنها كلها من مدرسة رجوع الشيخ إلى صباه، وكتب الثقافة الرفيعة قوى من صنف جيمس بوند واجاثاكريستى، وكل حكاياتها تدور وتلف حول الفيس بريسلى والخنافس، وهى دائما تستشهد بلندن، ولندن يرد ذكرها على لسانها بسرعة مائة مرة فى الدقيقة. الجو هنا فظيع، ولكن... اوه... ما أجمل جو لندن، وأنا آسفة لأن الشاى ليس جيدا كما ترى، كم أتوق إلى رشفة شاى فى أحد مقاهى شلسى، وهذه الكراسى غير مريحة.. كم هى مريحة كراسى لندن.. وليلة أعتم من ليالى الحرب هى التى سهرت فيها مع أودرى. متكلفة ولا كئيبة

يزيد، متعجرفة ولا تركى فلسان، كذابة ولا راديو إسرائيل، طماعة ولا يهودى فى البندقية..

وألقيت نظرة على الحاضرين فاذا بهم جميعا قرفانين آخر القرف وأغلبهم نام واستراح. فلما رأيت النوم فى الناس فاشيا، تناومت حتى قيل إنى نائم، وعندما استأذنت فى الخروج، اسرعت تلهث ورائى ببلوزتها المكشوفة وبنطلونها المحزق.. وكتمت فى صدرى ضحكة فقد كانت شديدة الشبهة بالبنات اللواتى يأكلن نارا فى شوارع القاهرة. ولو ربنا رزقنى بواحدة من نوع أودرى لسرحت بها فى الشوارع أنا ألعب الهيلاهوب وهى تأكل نارا وسنجمع عندئذ ثروة لا بأس بها. لو نطوف الحوارى أنا والست أودرى بمنظرها وبنطلونها ندعو العيال إلى الفرجة على فيلم طعنة فى الظلام تأليف وتخريج وتفريج عمر عبد العزيز فلابد أننا سنتعشى وننام حامدين شاكرين الله! الست أودرى كانت تلهث ورائى لغرض، ولم يكن الغرض غير شريف لا سمح الله، ولكن لغرض شريف خالص، سألتنى الست أودرى.. هل أجد معك عملة صعبة؟ قلت.. والحمد لله.. ولا سهلة!.. وفشخت بقها فبدت كسحلية تضحك، وقالت، مش معقول، سائح مثلك ليس معه نقود! قلت لها سيدتى، أنا لست سائح.. أنا واقع وحكايتى تشيب الطفل الرضيع قالت.. احكيلى أرجوك، أنا أهوى الحكايات الغريبة، عادة تعلمتها منذ كنت فى لندن. أنت لا تعرف كم أنا أعشق لندن، عندما رأيت لندن أول مرة أحسست أننى أعرفها من قبل، راودنى اعتقاد بأننى ولدت فيها من قبل ثم مت، ثم بعثت بعد ذلك فى افريكيا. صدقنى.. أنا أكره افريكيا، ولكن عزائى الوحيد أننى أعيش على أمل أن نهاجر من هنا إلى لندن فى يوم قريب!

الست أودرى الناشفة الحاشفة نموذج مضحك ستجده كثيرا فى افريكيا، حيث كانت السيادة والقيادة يوما ما للرجل الابيض الملظلظ كما الفطير. كان القانون السائد عن الرجل الافريكى لا يصلح للحكم، الرجل الافريكى للشغل والأبيض للإدارة والإمارة والسلطان العظيم، وناس ياما صدقوا أسطورة الرجل الأبيض، ويوم الاستقلال ياما فقد ناس عقولهم. هل هذا صحيح؟ هل انتهت دولة الرجل

وسحرية وكل ما فيها غامض وسرى، حتى البناء نفسه سر لا يعرف سره إلا مهندس النملة! وأعاصير افريكيا العاتية تقتلع الأشجار، تنفخ البيوت، إلا بيت النمل وأمطار افريكيا السيارة تعدم الشجر، تهدم القرى، إلا بيوت النمل! والبيوت من شوية رمل ومادة لزجة امتن من الاسمنت واصلب من الحجر الصوان. والنمل نفسه أبيض وطويل ورشيق ونشيط وشغال، وعلى ودنه! مجتمع النمل في أرقى درجة من التنظيم والعدل. طوابير رايحة جاية وفي خطوط مرسومة وكأنها أتوبيسات مؤسسة النقل، وكل نملة شايلة شئ، فرع شجرة، ضفدعة ميتة، حتة لحمة، حتة دبشة، ريشة عصفور، بذرة منجة، المهم لا يوجد عواطلي ولا واحد كسلان! الشغل على ودنه، والنشاط على ودنه، لا خناقة ولا حادثة، ولا واحد فاتح جعورته، ولا واحد ماسك شكوى وداير يلف على النمل الشغال. لابد للنمل لغة وموسيقى وحياة داخل القلعة المنيعة! عمنا الانسان المغرور ولا غرور أبو فصاد يخترع أدوات وآلات لاكتشاف القمر والمريخ ولو أحسن لاخترع آلات لاكتشاف النمل! وآه من النمل الشغال لو وقعت في رجليه.. باعتبار أن النمل ليس له أيدى ولن تقع إلا إذا وقعت في حالة ضعف عندئذ سيتولى النمل الاجهاز عليك.. وأي حيوان في الغابة يسقط جريحا يعاني سكرات الموت بعد معركة رهيبة، سيخرج له النمل ويشطب عليه. حتى الفيل العظيم سينتهي بعد ساعة زمان ولن يبقى منه إلا عظمه، والنمل فيهما يبدو كان آدم بتاعه جزار.. وله طريقته في التقطيع والتفصيص والسلخ فشر بشكار في المدبح! ولو كتفت أسد هايج على شجرة وغرقته عسل نحل لأكله النمل في ربع ساعة العسل والأسد أيضا.. بطنها مفتوحة وبقها مفتوح، وخشب تأكل، سكر تأكل.. لحم تأكل، وأي شئ وكل شئ تأكل فلا يمرى عليها ولا يظهر! تتحول المأكولات إلى أعصاب وعضلات وفيتامينات ولذلك فالنمل هو أكثر المأكولات في العالم فائدة لمن يأكل! وبعض القبائل في افريكيا تشوى النمل على النار وتأكله بالهنا والشفا! والعيال تحشو به جيوبها وتقرقزه ساعة العصارى على ضفاف الأنهار!

وشاطئ أفريكيا كله مزدحم ببيوت النمل. بين كل بيت نمل وبيت نمل ستجد بيت

الأبيض؟ ولكنهم عاشوا على أمل أن كل شئ سينهار وسيعود كل شئ إلى ما كان عليه.. فلما مضت سنوات وسنوات وكل شئ ينمو ويزداد فى الاتجاه الجديد، انهار هؤلاء تماماً، بعضهم انتحر، وبعضهم انهطر فى عقله فصار مثل أودرى المفقعة المبقعة.. لا تملك إلا أن تهذى بكلام فارغ كثير.

ولأننا فى افريكيا، ولأن الصراع لا يزال على ودنه بين القديم والجديد، والحرب شغالة بين التحفظ والتحرر فسنجد على سطح الحياة، نماذج حقيرة ونماذج عظيمة.. نماذج حقيرة تركها الخواجات، نتاج سنوات الذل الطويلة، ونماذج عظيمة دفع بها الشعب على السطوح، نتاج سنوات الثورة العامرة بالكفاح. ويا صلاة الزين على النماذج التى سنعرضها عليكم بإذن واحد أحد قهار.

□□□

الفنان والعبيط والشيخ على فى افريكيا

سيكون كل شئ على ما يرام باذن الله، فنحن على شاطئ أفريكيا، والدار أمان، ونحن افريكان على أية حال، أجدادنا كانوا هنا، وبعض الناس الذين سنلقاهم فى الطريق، كانوا عندنا، العسكرى الأفريكى أصارى، وسى محمد، ولا أعرف له اسما آخر، ولكنه افريكى كان يعيش فى شبرا، وخريج الكلية الحربية فى مصر، ومتزوج مصرية تعيش معه على شاطئ وينيبا وفى حديقة دارها الآن تجارب على زراعة الملوخية..

وفى بيت سى محمد تشرب شاى آخر آلسطة وتأكل لون مخلل بعصفر آخر مزاج، وعيش مشقق مفقع ملدن ـ بتشديد الدال ـ ويسألك سى محمد عن دوران شبرا، وقهوة جنة شبرا ومخزن الترماى، والراجل بتاع لحمة الراس الذى فى عابدين، ثم يطلب منك فى النهاية سيجارة بلمونت بفلة. السيجارة البلمونت كأنها ماء النيل، من يشربها مرة لابد أن يطلبها مرة أخرى!

وسى محمد مصرى المزاج والغرام والقعدة، ويا حلاوة على المصرى النزيه ليس له مثيل على ظهر الكرة الأرضية والنزاهة فى قاموس أولاد البلد لها معنى آخر غير الذى فى قاموس الفايروزبادى..

يقول أولاد البلد الطيبين الحدقين ألاجة.. فلان نزيه فى أكله.. ونزيه فى لبسه، ونزيه فى عيشته، النزاهة هنا تعنى مستوى. فإذا كنت حضرتك نزيه فى أكلك، فمعنى هذا أن مأكولك فى الفراخ والحمام والطواجن على كل لون..

والمصرى الأصيل إذا كان نزيها بهذا المعنى افترى..

المصرى الأصيل بطبعه يحب الحياة، فإذا راقت دماغه أصبحت الحياة لعبته..

أقسم لكم بدينى أننى تعرفت فى أفريكيا على واحد اسمه الشيخ مهدى، الناس هناك يطلقون عليه الشيخ نمرة، وهو مثل سى محمد واحد من هذا الصنف النزيه الذى حدثتكم عليه. القميص حرير يهفهف، والبنطلون صيفى ومظبوط فشر

تفصيل ايطاليا، والراجل نفسه سمين ومرتاح ولذائذى ودائما نائم على روحه. ولأنه لذائذى فهو ينام النهار بطوله ويسهر الليل كله، وهو مزاجاتلى له فى كل مجال باع. وهو فى أى مجال وردة، وهو ممسوس لأنه عاش فى مصر عشرين عاما طويلة. عاشها فى سيدى عبدالدايم فى عابدين، وكان الشيخ على محمود هو مثله الأعلى والأسمى، وعاش الشيخ مهدى حياته كلها يسرح خلف الشيخ على ويسحبه آخر الليل إلى بيته. وفى البداية راح يقلد طريقته فى التلاوة وطريقته فى الانشاد، ثم راح يقلد حركاته وإشاراته، وحتى الكحة اللعينة التى كانت تلازمه فى أخريات أيامه، أصابت عدواها عمنا الشيخ مهدى. السعال يخرج من صدر الشيخ مهدى بنفس الطريقة التى كان يخرج بها من صدر الشيخ على محمود رغم أن الشيخ على محمود كان مريضا وهو فى السبعين.. والشيخ مهدى لا يزال فى الخمسين من عمره..

وعاش الشيخ مهدى فى مصر يدخن.. ويشرب زوتوس وله ألف صديق وله فى كل ليلة قعدة، وفى تلك القعدات كان الشيخ مهدى يعيد ليالى الشيخ على محمود إذا أغمضت عينيك وسمعته خيل اليك أنك تسمع الشيخ على الله يرحم أيامه..

والشيخ على محمود لم يكن مقرئا فقط، كان مقرئا وفنانا وموسيقيا، ومحمد عبد الوهاب تعلم الكثير من أسرار الصنعة على يديه، والشيخ زكريا أحمد كان واحدا من بطانته، وعشرات من أهل الفن والمزيكة شربوا من نبع الشيخ على وارتوا من بحره.

ولكن الفنان الناصح ابن الناصحة هو الذى يتأثر باستاذه بقدر، والفنان العبيط هو الذى يتأثر باستاذه إلى درجة القتل، يظل متأثرا باستاذه حتى يموت. ويعيش حياته كلها فى ظله، يتحرك فى دائرته ويتكلم بطريقته ثم ينتهى آخر الأمر إلى مجرد شبح يتحرك خلف الاستاذ العظيم..

الشيخ مهدى فنان من النوع الأخير، فنان وعبيط، ذاب كله فى الشيخ على وضاع فيه فلما مات الشيخ على أصبح الشيخ مهدى مجرد بصمة لأستاذه، الحديث كله عن الشيخ على، والكلام كله حول الشيخ على، والشيخ على الميت يحكم

الشـيخ مـهـدى الحى ويوجـه خطواته، ويا مـيت نجف على الليـالى الحلوة التى سهرناها مع الشيخ مهدى على شاطئ النهر فى افريكيا نسمع تواشيح الشيخ على وتقاسيم الشيخ على ونوادر الشيخ على. والنهر كله تماسيح تتلعبط، ووحوش تتلمظ، والشيخ مهدى غائب عن النهر وعن التماسيح وعن الوحوش وعن الوجود كله، سيرة الشيخ على عنده ولا سيرة الحب عند سميعة أم كلثوم!..

أنا أحببت الشيخ مهدى وعشقته، والرجل لا ينسى الشيخ على لأنه لا ينسى مصر، ويدفع نصف عمره ويعود شهرا إلى مراتع الصبا فى سيدى عبد الدايم ومعروف وشارع كلوت بك وعشش الترجمان! وهو يكون أكثر الناس سعادة كلما وجد واحد مصرى سميع مثل حالى ونزل فيه كلام وغناء حتى يدركه الصباح. وهو إذا انسجم قوى، وانشكع قوى، يبكى كطفل. وأحيانا من شدة اللذة يلطم على خديه. وأحيانا ينهض واقفا فجأة يصرخ كأنه ضبع لئيم فى الغابة. شعرت خلال الأيام التى قضيتها معه أن الأرض ضاعت من تحت رجليه، وأنه هو نفسه ضايع يلف حول نفسه، حتى الهواء الذى يشمه غريب على رئتيه، فقد تعود أن يتنفس من تراب وغبار المقطم!

وبكيت وأنا أودعه. الرجل الافريكى الطيب عم مهدى الذى كل أصدقائه الآن عابرو سكة وأبناء سبيل، والذى ما تكاد علاقته تبدأ بهؤلاء الأصدقاء حتى تنتهى، والذى ما يكاد يهدأ نفسا حتى يهب مذعورا يبحث عن صديق أو على الأقل يبحث عن رجل يقبل أن يعيره اذنا!

وعن طريق الشيخ مهدى تعرفت إلى رجل خواجا غريب الشكل والمنظر. خواجا مقدد مكرمش كأنه سلحفة فى حديقة الحيوان. سيقان تطل من البنطلون الشورت كأنها أصابع رجل مريض بسل العظام. مرهوق وأصفر رغم أنه من بلاد البيض الأمارة. محنى الظهر كأنه يبحث عن شئ فقده على أرض افريكيا. سكران طول النهار يقربع فى بيرة وطول الليل غرقان لشوشته فى الكونياك لا يكاد يفيق لحظة. ربما لأنه يريد أن ينسى فلقد كان الرجل سيدا يوما ما، وكان عظيما وكبير

وصاحب مال واقطاعى صاحب عزوة! وكانت له مواهب شتى، وكانت أبرز مواهبه أنه رجل أبيض..

وعندما عادت أفريكيا إلى أهلها وأصبحت مصائرها فى أيدى أبنائها، أصاب الذهول الرجل الأبيض المكرمش، وانقلبت الست زوجته ميتة من الخضة، وهاجرت إحدى بناته مع رجل أبيض ملظلظ إلى بلاد بره، وسرحت البنت التانية على روديسيا، وبقى الرجل الأبيض مكانه، يشرب لينسى، وهو ليس له أصدقاء فكلهم ماتوا من زمان ضايع ليس له مهنة. ضايع ليس له سلطة. مجرد حطام شهرته تدوى كالرعد ولكن فى البارات والحانات والملاهى الليلية وعندما تغلق كل هذه الأماكن أبوابها، تستطيع أن تلقاه على أى رصيف، فهو من جماعة المراصفة، أبناء الرصيف! وعلى أى رصيف يجلس الخواجا الغلبان حتى الصباح يعب من زجاجة تحت رجليه ويغفو، فالحياة لم تعد تطاق فى أفريكيا لهذا الصنف من البيض. وهو لا يستطيع أن يقاوم ولا يجرؤ على الحركة، وكل ما يستطيعه هو أن يدمر نفسه، وأشهد أنه نجح فى مهمته خير نجاح!

خواجا آخر تعرفت عليه عن طريق الشيخ مهدى، خواجا ومعه بندقية، فهو صياد كان يأتى فى الأيام الخوالى إلى افريكيا فى رحلة صيد، وكان يأتى لورد ابن لوردية، الدولارات معه بالكوم، والجنيهات الاسترلينى معه بالويبة، والبنادق معه جاهزة، والأصدقاء على قفا من يشيل. وكان يستأجر بغالا ويستأجر رجالا، ويدخل الغابة يصطاد. ويغيب داخل الغابة شهرا وشهرين وثلاثة شهور، ويعود ومعه صيد يذهب به إلى بلاده يعلقه على جدران البيت، يتفرج عليه الضيوف، ويتفرج عليه العيال، ثم تمضى عدة سنوات قبل أن يأخذ عزاله ويأخذ فلوسه ويعود إلى أفريكيا. ولكن الحياة تدهورت بالخواجا الصياد، وراح هو الآخر يتدحرج حتى وصل الى الحديدة. لم يعد معه فلوس ولا شيكات سياحية. حتى البنادق باعها فى السوق، ولكن الغابة كانت تملأ عليه خياله والصيد يسرى فى دمه، وسرعان ما هجر اوروبا كلها وطار إلى أفريكيا يصطاد منها ويسترزق! وهو الآن دليل محترف، يذهب مع البيض المتريشين داخل الغابة، يدلهم على الطريق، ويصطاد معهم،

ويخرج من المولد بحسنة. وأحيانا يفتحها الله عليه فيصطاد صيدا سمينا لحسابه، ويكون معه جماعة متريشين، فيهبر من الصيد ويهبر من الجماعة ويكرمه المولى الذى لا ينسى عبيده حتى ولو كانوا من البيض!

والصيد كما فهمت من الخواجا، ليس بندقية وغابة وشوية وحوش وهات يا ضرب نار ع الفاضى وع المليان!

الصيد حياة وتجارة وتنظيم قبل كل شئ!

وأنت لكى تصطاد «فيل» مثلا تحتاج إلى خمسين ألف جنيه. ستأخذ معك عشرة رجال افريكان. ومؤونة تكفيهم، وستأخذ معك بنادق وذخيرة تكفى لشهر من الزمان. وستدخل الغابة وأنت وحظك. لأن الحيوان الذى اسمه الفيل، ليس كالسجاير التى اسمها الفيل. إذا طلبتها من عند الدخاخنى ناولك العلبة على طول. أما الحيوان الفيل فيحتاج إلى صبر ولا صبر عمنا أيوب. لأن الحيوان الفيل ليس موجودا على الدوام. قد تصادفه وقد لا تعثر عليه! وإذا عثرت عليه فلابد من خطة لكى تحصره فى مكان، بحيث تضمن حياتك إذا اطلقت عليه النار وخابت الطلقة، لأنه يا ويلك من الفيل إذا اطلقت عليه البارود ثم عاش. الغابة ستصبح سداح مداح تحت رجليه. وكل قدم وقدم ولا جذع شجرة جميز. وهو ملك الغابة بلا منازع صحيح أن اللقب للأسد. ولكن من الذى خلعه عليه؟ ليست الحيوانات قطعا هى التى فعلت هذا، ولكنه البنى آدم الذى يريد أن ينظم الكون كله على هواه. ويوزع المناصب والألقاب حتى فى عالم الحيوان. ولكن أصغر ثعلب فى الغابة لا يصدق هذا الافتراء الذى من صنع البنى آدم، فأى ثعلب فى الغابة يعلم تمام العلم أن الفيل هو الملك المهاب وليس الأسد الكسلان الجربان العواطلى الذى ينام طول الليل، ويتثاءب طول النهار! وزئير الأسد المرعب المخيف لا يخيف أحدا إلا الإنسان، وهذا الزئير فى حقيقته ليس إلا تثاؤب الأسد الوخمان. ولكن الفيل إذا اتغاظ فياداهية دقى على الصياد وعلى أى واحد معاه! والنشان لازم يكون مضبوط وخمسة وعشرين قيراطاً والرصاصة فى جلد الفيل لا تؤثر عليه وربما ترتد وتصيب الصياد، الضرب لابد أن يكون فى المليان . ومليان الفيل فى الأذن، وفى المخ

المفتوح، وتحت الذيل، وفى العين. فان خابت فأمك ـ ولا مؤاخذة ـ داعية عليك..

الخواجا بتلر الصياد عندما دخل الغابة أول مرة كان شابا ومعجبانيا وقويا ومفترى آخر افترا وحاسس بنفسه ... ويا أرض ما عليكى الا العبد لله!

وتصور الخواجا بتلر فى الغابة وهو على هذا النحو من السذاجة والهيافة وشاهد فيلا يرعى فى أمان الله. وعمَّر البندقية ونشن واندبت الرصاصة فى جلد الفيل. وهاج الفيل ورمح نحو الخواجا، واقتلع فى طريقه كل الأشجار، ورمح كل الناس الافريكان الذين كانوا مع الخواجا لانهم مدربون يعلمون كيف يكون الحال اذا هاج عمنا الفيل. وهو نادرا ما يهيج، ولكن آه من هوجة الطيب الصبور!

واحتاس أخونا بتلر ورمح بأقصى سرعة، تاه فى الغابة أياما حتى وجدوه مغمى عليه يكاد النمل أن يحمله إلى بيته! وتوبة من دى النوبة، ورأس أخونا بتلر وألف جزمة قديمة لا يهوب نحو الفيل حتى ولا فى حديقة الحيوان! وعدة سنوات بعد ذلك وأخونا بتلر لا يصطاد إلا الحمام واليمام والغراب النوحى الوديع! ولكنه بعد ذلك تعلم وتدرب واستطاع فى النهاية أن يصطاد الفيل. وباع عاج الفيل بالشىء الفلانى وباع لحمه بألف أهيف. والناس فى الغابة يأكلون لحم الفيل، والخواجا بتلر أكل منه هو الآخر، ويقسم بكل كتاب أن لحمه ألذ من لحم الثور! والأسد المرعب المخيف يلقاك فى الغابة فيهز ذيله ويهز عنقفته ويجلس بالساعات أمامك لا يهش ولا ينش، مسكين عمنا الأسد نظره على قده، لولا العيب لسار فى الغابة يتوكأ على عكاز. ولو حيوان حدق فتح محل نظارات طبية فى الغابة لكان عمنا الاسد هو أحسن زبون لديه! والنمر لا يهاجم الانسان إلا إذا فقد عقله. فى عالم الحيوان أيضا ناس عقلاء والعقل زينة ، وناس آخر جنان!

والحيوان المجنون معذور، يأكل ولا يشعر بشبع، ويفتك بالإنسان لمجرد أنه شىء يتحرك. ويهاجم كل من يلقاه حتى الفيل! مع أنه لو كان يتمتع بعقله لأفسح الطريق للفيل وضرب تعظيم سلام!

والحيوان المجنون ليس خطرا على ابن آدم وحده، ولكنه خطر حتى على

الحيوان، ولذلك تهب كل الغابة ضده. وكل من يلقاه يهبشه ويلطشه حتى يجيب أجله!

وفيما عدا الحيوان المجنون أنت تستطيع أن تعيش فى الغابة عدة أعوام بلا بندقية، نام وأنت مرتاح الضمير فى الغابة واحذر فقط الزواحف والضبع. الثعبان معذور لأنه مذعور كل حركاته واشاراته تؤكد أنه خواف خوف الإبل، مذعور ذعر أبو فصاد. وهو يتمشى أفرنجى فى الغابة يلدغ كل من يلقاه ويموت فى النهاية بسبب ذعره. والضبع جبان وحقير ومن أصل واطى، وابن ناس غير طيبين وغير كويسين، وتربية جحور وسخة وغابات قرعة. ولذلك فهو لا يأكل إلا واحدا نائما ومتسلطن، أو جيفة تركها على طريق حيوان غندور أبن ناس طيبين! بعد الضبع والثعبان، الغابة أمان مثل بيت حضرتكم. تستطيع أن تنام فيها وتتغندر، تستطيع أن تضرب فيها بلطة وأنت آخر رواقة وآخر مزاج.

والخواجا بتلر يعرف الغابة كما يعرف بيتهم، وعن أسرار الغابة يستطيع أن يؤلف عشرة كتب وعشرة أفلام! وهو من شدة هيامه وغرامه يعيش فى الغابة ومتزوج منها. ست أفريكانى حلوة كما وحيد القرن، قوية وعنيفة وغبية أيضا. لأنها تحب الراجل الخواجا وتسأل عليه كلما خرج للصيد فى الغابة، تخشى عليه الفتنة من مرات الاسد وأنثى الغزال!!

السيدة الافريكية مرات الرجل الخواجا سيدة من باب المجاملة، وهى خير شاهد على نظرية التطور، كانت بنى آدم فى الماضى وأصبحت حيوانا وستصبح شيئا آخر اذا امتد بها العمر فى قادم الأزمان!

والخواجا الصياد تزوجها بعد أن تدمرت حياته وأفلست خزائنه وهربت مراته مع خواجا آخر بنكير يقضى الليل على موائد القمار، ويقضى النهار فى بارات لندن الانيقة! تزوجها لأنه لم يكن أمامه سوى طريقتين أما أن ينتحر وأما أن يتزوج الست أياها. ولما كانت بلوته تقيلة، ومصيبته شديدة فقد آثر أن يتزوج الست أياها لكى يتعذب ويتحرق على نار جهنم! ومع ذلك ... ما أغرب الحياة. بعد شهور تعود الراجل الخواجا على المرأة الغلبانة وتبعها كأنه صياد وهى فريسه.. أصبحت

المرأة أياها هى كل حياته وكل دنياه صدقنى أنا لم أكتشف نفسى، ولم أعرف نفسى إلا بعد أن ضمنى معها كوخ واحد. نحن فى الحياة لا نعرف ماهو الأحسن وما هو الأسوأ إلا بعد فوات الأوان، هكذا صاح الراجل الصياد الغلبان الذى آثر المبيت فى الغابة فرارا من مدينة لندن ... لندن أكثر وحشة من الغابة وأكثر وحشية... الناس هناك تأكل بعضها بدون مناسبة، والحيوانات هنا لا يأكل بعضها بعضا إذا شبعت! وأنت تستطيع أن تنام فى الغابة آمنا ومطمئنا إلا من الضبع والثعبان، والناس هناك كلهم ضباع وثعابين إذا أغمضت عينيك لحظة أكلوك أكل عزيز مقتدر .. ويا قوة الله على الست مراته، لا تعى شيئا ولا تدرك شيئا، ومعها مقشة ليست للغابة ولكن للحيوان الغادر الكاسر الذى هو جوزها.

وعندما نادت عليه نهض يجرى كأنه مسجون لحظة التمام والست أياها كأنها مأمور الليمان واقف على البعد يتفرج!

والله على الخواجا، عندما استدار نحو الغابة واختفى داخلها والست بالمقشة تتبعه كظله، صعب علىّ، ولكن صعبت على نفسى أكثر، فقد كان العبد لله فى طريقه إلى الغابة الأكثر وحشة وأكثر وحشية... كنت فى طريقى إلى أوروبا. ولكن قبل ذلك ما أحلى القعدات والسهرات التى شهدناها فى أفريكيا ...

□□□

يا جيش النمــل.. مليـون ســلامة

سنظل نتمشكح على شاطئ أفريكيا وبالشبشب زنوبة والجلباب، وقدم فى الميه وقدم فى الرمال وعرقنا مرقنا وأنظارنا على الأرض نتفرج على ألف صنف من الزواحف والحشرات ، وفراشات فى الجو ما أحلاها وما أغباها ، أشكال على ألوان أحمر وأصفر وأخضر وأبيض وأسود، فراشة حلوة ومثل كل حلوة غبية، فى النار تلقح جتتها ، فى نسيج العنكبوت تعلك نفسها، فى شباك الخنفسة تقع وقعة مهببة ... وخنافس أفريكيا كخنافس لندن، خنافس قوية وعنيفة ومجعلصة! كل خنفسة وخنفس كالوطواط، بليدة لا تتحرك، ماكرة لا تتكلم، منبوذة تحفر لنفسها فى الرمل، تتحفز وتتربص، لدعتها وقرافة الإمام الليثى، فإن كنت محظوظا فقرافة البساتين! وسحالى مثل التماسيح لطيفة لا تعض ولا تلدع، غلبانة تلف طول النهار بحثا عن لقمة وعن حتة سكر! جميلة تصلح للزينة وتصلح للعيال! ولكن هوليود النصابة ربحت على قفا السحلية عدة ملايين من الجنيهات انتجت فيلما اسمه ليل الإجوانا، والسحلية بالانجليزى اسمها الإجوانا، وأنا أخشى الآن أن يعجب الاسم واحد من إياهم فيفتح محلا فى شارع الهرم اسمه ملهى الإجوانا، لأن اسماء الأعاجم تخطف عقول الناس، وتخطف أبصارهم، حتى أن واحد افندى منهم فتح سينما وسماها سينما الهمبرا، وهى كلمة عربية معناها الحمراء ولكنها أعجبت أخونا الافندى فهبر الاسم الأسبانى باعتباره أشيك وأحسن لأنه من بلاد الخواجات.. المهم، إن هوليود النصابة اخترعت قصة السحلية، متوحشة زعموا وجبارة افترضوا ومفترسة صوروا وتهبر لحوم الناس سنيروا .. يعنى عملوا سيناريو! وفيلم كامل متكامل عن السحلية وليل السحلية وكسبوا مكاسب ولا الرمالى بتاع العيش أيام الحرب العالمية!

ولكن أعجب شئ وأغرب شئ على شاطئ افريكيا هو بيت النمل. كل بيت فى حجم صخرة من صخور الهرم الأكبر، بيوت شامخة وأنوفها عالية، عوالم ساحرة

نمل ثالث. وملايين تسكن البيت الواحد، ولولا حكمة الواحد القهار لسيطر النمل على العالم. وحكمة الواحد القهار أيضا أن البنى آدم يستفيد من النمل ويتعلم. القائد أفونتى راجل تمام ومن قادة حرب التحرير فى افريكيا! كان عسكرى جيش انجليزى أيام الحرب... خطفوه من ساحل غانا ورحلوه إلى الشرق الأوسط، وتكررت له نفس القصة التى حدثت مع كل العساكر الأفريكان.. عبر البحر إلى أوروبا، وخاض فى الدم حتى اخترق أطلال برلين وداس على حطام دار المستشارية! ثم رحل إلى الشرق الأقصى ليحارب ضد اليابان وتاه مرة فى أدغال بورما وعاد إلى الحياة بمعجزة. اكتشف فجأة أنه فى مستنقع يغوص فيه حتى المصارين. وبعد قتال عنيف ضد الطبيعة استطاع أن يخرج من المستنقع الذى كان فيه! ولكن ليكتشف شيئا آخر!.. إن الغلبان السيئ الحظ افونتى فى منطقة مستنقعات تمتد مائة ميل وربما أكثر سجن كبير قضبانه من الماء الآسن، وجدرانه من الحشرات والتماسيح ولو نجا افونتى من الماء سيلهفه تمساح ولو نجا من التماسيح ستلدغه عقربة، ولو نجا من العقربة ستهبره ناموسة فى نافوخه وينتهى الأجل المحتوم، وآثر افونتى العاقل أن يموت مكانه، وتجرى جرى الوحوش وغير عمرك ما تحوش، وأعمارنا بيد السماء يا نهر البنفسج على رأى زكريا الحجاوى، أو يا مستنقعات البنفسج لسان حال افونتى الغلبان! وعشرة أيام وعمنا افونتى وحده فى بحر المستنقعات، رشاش يطقطق منه فى الليل كام رصاصة لتفر التماسيح من حوله! ولكنه استيقظ ذات صباح ليجد انه وارم كالفقمة وشه أزرق محبب كأنه باذنجان مخلل معصور عليه لمون! ورأسه توش كالباجور وسخنه كالفرن تستطيع أن تضع فوقها حلة وتطبخ عليها آخر طبيخ مسبك! وأدرك عمنا افونتى أنه يموت، وأن تموت فقط فليس فى الأمر شئ. ولكن أن تدرك انك تموت فهنا المصيبة الكبرى! والاعدام صعب لهذا السبب، لأن المحكوم عليه يعلم قبل الموت بربع ساعة أنه سيموت. وعمنا افونتى حالته أصعب لأنه يعلم أنه سيموت ولكن عذابه سيطول، لأن عمره قد يمتد أكثر من أسبوع! ونام عمنا افونتى وتمدد ومرة يستيقظ ومرة يغفو، ودائما يخطرف ويخرف وحالته أصبحت نيلة، ولو يقدر

لشال مدفعه على كتفه وصرخ فى الغابة، عشا الغلابا عليكى يا مستنقعات، وحسنة قليلة تمنع بلاوى كتيرة يا تماسيح! ولكن الود لم يكن وده، والعين بصيرة والقوة قليلة، والموت بدا يزحف ولكن ببطء. وعندما أبصر الضبع يحوم على البعد أدرك أن النهاية قربت، لأن الضبع الخسيس يشم رائحة الموت على بعد ألف ميل.. وأغفى عمنا افونتى ولكن ليستيقظ فجأة على صوت كالرعد. وظن أنه مات منذ ملايين السنين وأن القيامة قامت وأنه مدعو للمثول بين يدى الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ولكنه اكتشف بعد لحظات أن الصوت أحدثته طيارة هليوكبتر أمريكانى سقطت من الجو على المستنقع وأربعة ضباط سقطوا معها التهمت التماسيح واحدا منم والثلاثة الباقون زحفوا حتى أصبحوا بجوار افونتى المريض. ولأن الطيارة امريكانى والضباط امريكانى، ولأن يا بخت من كان النقيب خاله، فقد اهتمت القيادة بالأمر،سماء بورما الملبدة بالغيوم انتشرت فيها الطيارات كالنمل، وفى العصر اكتشفوا مكان الطيارة وحطت طيارة أخرى هليكوبتر سليمة وعال العال.. وطارت ومعها الضباط الثلاثة والغلبان افونتى. ومن بورما إلى بلاده فقد انتهت اليابان وانتهت الحرب..

ها هو افونتى السعيد الحظ يعود إلى بلاده بعد ست سنوات قضاها فى البرارى والصحارى والمدن المخربة على ضفة المحيط وهو قد رأى الموت أكثر من مرة حتى ألفه، وعاشر عزرائيل حتى صادقه، ودخل مصيبة وخرج من مصيبة حتى لكأن المصائب تحولت إلى معالم على الطريق.

وها هو افونتى السعيد الحظ يعود إلى بلاده بعد ست سنوات وقد أصبحت التجربة عنده والخبرة لديه، وبأكثر من لسان يرطن، وبأكثر من وسيلة يفكر ولقد أجاد الحرب المنظمة فى أوروبا، وأجاد حرب العصابات فى آسيا ورأى بأم عينه عساكر الانجليز تفر كالغربان فى الصحراء، وتستسلم كالأبقار فى أوروبا. لماذا إذن العسكرى الانجليزى شامخ بأنفه فى افريكيا؟ رافع رأسه على الأفريكان؟ يتكلم من طرطوفة لسانه مع الزنوج! لماذا يتصرف ويتحرك هنا كأنه رسول كأنه إلــــه!

ووصل افونتى إلى جواب على السؤال، العسكرى الانجليزى مسلح والافريكى أعزل وإن وجد السلاح لا يستطيع استخدامه. ولكن ها هو الوقت قد حان للانتقام من سنوات الذل والقهر وأفريكيا تطفح بالألوف من الذين كانوا عساكر فى الحرب وكلهم مدربون وكلهم خبراء، وكلهم اللهم صلى ع النبى على استعداد للبذل والفداء ومن عشرة رجال قام تنظيم افونتى العظيم، فصيلة النمل، وبعد شهور ستصبح الفصيلة فصائل، وستتحول الفصائل إلى جيش... وسيصبح الاسم المختار لجيش افونتى.. جيش النمل.. ومن هنا لا نبدأ كما خالد محمد خالد، ولكن من هنا نعود إلى حكاية النمل فعلى شاطئ افريكيا حيث عاش افونتى صباه، كان يجلس بالساعات يراقب جيش النمل وهو يتحرك جحافل تخرج وجحافل تعود، سرايا تتحرك، وسرايا تراقب، وسرايا تهاجم، وسرايا تحمل الغنائم والأسلاب! كل يتحرك بخطة وكل يتحرك بميعاد، والقيادة واحدة، والآراء نهائية، والطاعة واجبة والأرزاق للمجوع.

وهكذا بدا جيش النمل البشرى يتحرك ضد الاستعمار فى افريقيا وعندما انطلقت الرصاصات الأولى جرب الإنجليز ان يطفئوا النار المشتعلة ولكنهم فشلوا! وعندئذ استعانوا بجيش نيجيريا المستعمرة وقتئذ، ليقتل الأفريكى افريكيا مثله وليطبقوا مبدأ الأمريكان فى آسيا آسيوى ضد آسيوى، ولكن الأفريكان أفسدوا اللعبة عليهم، وفى أول صدام انضم الأفريكى النيجيرى إلى الأفريكى الغانى.. وهات ياضرب ويا عزق فى الوحش الابيض الذى يمص دم الفريقين، واحتاس الانجليز حوسة حشاش وقع فى كبسة، ولم تنته الحوسة إلا بالجلاء. وهكذا بدا افونتى العظيم ولم يكن الأخير، فى كل بلد فى افريكيا ظهر افونتى آخر ومن جيش الرجال البواسل الذين ضربوا الألمان فى العلمين وضربوهم فى روما وضربوهم فى باريس وضربوهم فى برلين، من هؤلاء الرجال قام جيش تحرير أفريكيا ليضرب هؤلاء الذين ضربوا افريكيا ضربة العمر وكسروا عمودها الفقرى وكتموا على أنفاسها ألوف السنين! وافونتى لا يزال حيا يرزق، شابا لا يزال. قويا سيظل وجهه مستديراً، وكتفه عريضاً، ورقبته مثل رقبة خضر التونى بتاع

الحديد. كان يتكلم ببراءة ويتكلم ببساطة ويحكى ذكريات الكفاح المرير وكأنه يروى قصة فيلم شاهده، ويضحك افونتى عميقا كلما تذكر حرب العشرة أعوام فعندما بدأ الصدام بين العسكرى الأفريكى والعسكرى الإنجليزى كان منظر الأخير مضحكا شديد الإضحاك. العسكرى الإنجليزى خرع ممهمط كالتين البرشومى، مرهوق كورق أشجار الموز. الفراشة تخيفه والسحلية تجعل قلبه يطب فى رجليه، وطابور من النمل يجعله يصرخ فى الغابة كما طفل أمه تخيفه بالبعبع المكار!

ذات مساء حاصر جماعة من جنود الجوريللا الإنجليز فى الغابة. وعساكر الجوريللا معجبانية آخر طراز، على المعاصم أساور جلد، وعلى البرانيط فروع شجر، وحول الخصور سكاكين مسنونة ومطاوى حامية، والجزم حداوى وفيها مسامير وبزوز ولا فريق ريال مدريد. ومع كل واحد سلاح أبيض وسلاح أسود ونظارات معظمة وجهاز لاسلكى مفتوح على القيادة باستمرار. والاسم نفسه حاجة تخيل وحاجة تخبل.. الجوريللا، ولابد أن الجوريللا تقاتل بالأسنان وبالأظافر وبالأقدام وبالشناكل والمقصات! ولكن عمنا افونتى كان يعلم أن الاسم لأمشير والفعل لطوبة، وكأن يعلم أنهم لا جوريللا ولا أى حاجة، ولكنهم عساكر جرابوللى. وزحف عمنا افونتى بعساكره فى شكل حدوة حصان ووقف طول الليل حول عساكر الجوريللا يصدر أصواتا مفزعة، مرة كصوت الأسد، ومرة كصوت الثعبان. ولكن عمنا افونتى خابت آماله، فقد ظل عساكر الجوريللا فى أماكنهم أكثر ثباتا من الأول، فلا حركة ولا حتى همس وعندما انبثق الصبح اكتشف عمنا افونتى أن العساكر الجوريللا خلعوا خوذاتهم وملابسهم وأسلحتهم وعلقوها كما خيال المآتة وهربوا فى الليل من شدة الخوف! وعلى بعد ميل واحد من هذا الديكور كله، كان خمسة عساكر إنجليز بالفانلة واللباس، مشتحين كالفسيخ، مشندلين كما السمك الميت، ولم يكن فى جسم واحد منهم مطوة، ولم يتخدش واحد منهم بدبوس، ولم تخر من واحد منهم نقطة دم! ماتوا جميعا بالسكتة اللهم احفظنا، مع أنهم جميعا جوريللا، وجميعهم يا صلاة الزين شباب كالورد! تجربة افريكيا ان العساكر الخواجات المحتلين لا يخرجون بالمفاوضة ولا يرحلون بالمذكرات. وبدلا من تبادل

الوثائق لابد من تبادل الطلقات، وبدلا من ضرب تعظيم سلام لابد من ضرب الرصاص وبالرصاص دخل العساكر الخواجات أفريكا وبالرصاص رحلوا!

رجل واحد من كل الرجال الافريكان ابناء الحرب العالمية يترحم عليه افونتى ويقرأ على روحه السلام. الرجل من جنوب أفريكيا واسمه فوندا عسكرى تمام وصل فى الحرب إلى أعلى رتبة وصل إليها أفريكى أسود خلال الحرب.. صاجن ميجور.. وبالبلدى مساعد، وبلغة والدى حضرة الصول ولأنه أفريكى أسود وصول فقد كان المرحوم فوندا يحكم أورطة أكلتها الحرب ومات أغلبهم فى معارك أوروبا، وآخرهم سقط شهيدا وقلب برلين على مرمى مدفعه، وعاد عمنا فوندا الكبير إلى جوهانز برج، وفى جوهانز برج السود ينكشون فى الصحارى بالأظافر وبالأسنان بحثا عن الذهب الأصفر الرنان، وخواجا سمين كالثور يلهف هذا الأصفر ويبيعه لتجار الجواهر فى لندن ونيويورك وباريس! والأسود يأخذ حسنة ويعيش فى كهف، والأبيض الملظلظ له يخت عند الشاطئ وغرفة محجوزة فى الريفييرا، وخزائن سرية فى جنيف، وقصور فى الكابتاون، ورحمة ربنا واسعة على الأبيض الملظلظ وأضيق من عين الصرصار على الاسود ابو جلد محروق. وكان الصول فوندا واحدا من هؤلاء الرجال فى منجم ذهب فى صحارى جوهانزبرج. وذات يوم أخذ عمال المنجم وكأنهم كانوا عساكر فى الحرب واختفى داخل الصحراء. وبدأت أول معركة تحرير بالسلاح فى جنوب افريكيا ولكن الرجل الأبيض عالج الموضوع بدهاء وبخسة.. أقام ستارا من الكتمان حول فوندا ورجاله لا خبر ينشر ولا بلاغ حكومة يذاع ولما كانت الشركة فى حاجة إلى دعاية، وفوندا محتاج إلى أن يصل عبر البحار إلى العالم البرانى. فقد لجأ إلى صحافة الغرب لتوفد رسولا يخترق الصحارى ليكتب قصة الرجال المائة والحرب التحريرية. وعلمت حكومة الرجل الأبيض بالأمر. وذات صباح وصلت إلى مقر قيادة فوندا فى الصحراء بنت متحمسة متكلمة ومعها كاميرا وآلات تسجيل وكافة شئ وبعد شهر طويل مع فوندا ورجاله عادت إلى كيبتاون إلى ادارة الأمن العام فى حكومة الرجل الأبيض، البنت الشيطانة المتحركة لم تكن صحفية ولكنها كانت مستوظفة فى مكتب الأمن التابع

للرجل الأبيض. وكان سهلا بعد ذلك أن تباد حركة فوندا. المواقع معروفة، ونوع السلاح معروف، وعدد الرجال معروف، وكل شئ وأى شئ كان مكشوفاً وعلى عينك يا مخبر وحلقت الطائرات عشر مرات على مواقع فوندا ومسحتهم جميعا. لو عاش فوندا فلربما تغير مصير جنوب افريكيا. أغرب شئ أن صحافة الغرب التزمت الصمت فلم تنشر حرفا واحدا لا عن حركة فوندا ولا عن مصيرها، والكتلة الثالثة لم تكن قد ظهرت وحكومة العالم أغلبها كان وقتئذ طبيخ فى طبيخ، وشيلنى وأنا أشيلك، لم يظهر فوندا المسكين فى الوقت المناسب، ولكنه جاء متقدما بعض الوقت، غير أن موته لم يكن عبثا. فلم يلبث ان ظهر بعد فوندا عشرات ومئات وألوف وملايين كلهم فوندا... والله يرحم فوندا ويحسن إليه...

□□□

دخانيق.. وسراديب.. وبؤر

ستنفتح الآن أبواب الصياعة أمام العبد لله، وسندخل حوارى كحوارى سيدنا الحسين. مبلطة كضمير الخائن، ضيقة كعقل الأحمق، ساحرة كما الحواديت فى ألف ليلة وليلة وسنجلس مع الافريكان على المصاطب، وسنشرب شايا أفريكيا وإن شئت الدقة سنلهط شايا أفريكيا لأن الأفريكان لا يحبون الشاى.. ظاهرة غريبة وذات دلالة عميقة، المستعمر الأبيض كان يحب الشاى ولذلك كرهه الأفريكان، والشاى الذى نشربه هنا لن تجده إلا فى الفنادق الكبرى، أما شاى الأفريكان فشاى غريب، شاى فى سلاطين، وكما البلوظة تخين، وكما اللبن الزبادى ممهط وكما شربة الزيت ماسخ ولعين، وسنأكل مع الافريكان فول سودانى، معمول بطريقة حلوة فشر الفول السودانى فى بار جروبى، وسنلعب معهم سيجة، ولكن ليس على الأرض وبكلاب من الطوب كما هو الحال فى بلدنا، ولكن على خشبة كخشبة الطاولة، وبكلاب من خشب الجوز، وسنقزقز معهم ذرة مسلوقة وموز مشوى، فإذا انجلت القعدة وحليت سنشرب معهم كونياك فشر مية النار، وويسكى يكوى ويشمط ولا لهاليب جهنم، وسندخل بيوت الافريكان الحلوة، وكل بيت مثل الربع، غرف على الصفين، وكل غرفة فيها ساكن، ولكن فى الليل ينام الجميع فى الحوش، البساط أحمدى، والنائم منه للسما، وسيأتى الفطور فى الصباح، مربة جوز هند، وخرطة أناناس حلوة، وبيض مضروب فى اللحمة، وقرع بالرز، وهو ليس مثل قرع بلدنا، ولكن القرع هناك كما البطيخة الصالحاوى الضخمة، وعيش كما البتاو المرحرح فى المنيا، وسيغرفون لك صحن شطة على كل صحن طبيخ! ولو استطاع الأفريكى أن يخلط الشطة بالمربى، وأن يخلطها بالأناناس، وأن يخلطها بالميه، لفعل وهو مستريح المصارين! الافريكى التمام يحب الشطة، والشطة أيضا تحبه. ولذلك نال العبد لله احترام وحب الجميع لأنى أعبد الشطة، والشطة مفيدة فى أفريكيا لأنها تلطف حرارة الجسم، ولولا الشطة لخنق الأفريكى نفسه من شدة

الحر واستراح! وحبنا للطرشى البلدى، والفلفل المخلل، واللمون المعصفر، دليل أننا أفريكان وأننا من قدرة واحدة! والأوروبى أحيانا يتظرف، وأحيانا يتبسط، وأحيانا يخدع الأفريكى لأنه مثله، ولكن الشطة تكشفه أمام الأفريكان وتعريه فيبدو على حقيقته! راجل أوروبى من بلاد الانجليز، يعيش على شاطىء الفولتا اختلط بالافريكان واختلطوا به، عاش معهم وسهر على المصطبة بينهم، وتزوج واحدة من بناتهم، وأرتدى زيهم ولوحته الشمس فأصبح أوروبياً محمصاً! وتبسط الأوروبى أكثر فأكل مع الأفريكان، بالأصابع مثلهم، على الأرض مثلهم، ولكن الطعام كان فيه شطة فسقط الأوروبى دائخا على الفور، وعلى المستشفى نقلوه، وخرطوم طويل فى بطنه دلدلوه، وغسيل معدة وتحقيق طويل عملوه، ولم يتحمل الأوروبى الصدمة فمات فى الصباح قتلته الشطة لأنه لم يكن أفريكياً إلا من الخارج أما المصارين فقد كانت ـ كالنية ـ من بلاد الإنجليز! افترى الراجل الخواجا على الله، ومن افترى على الله كذب، أنا نفسى ابن حوارى الجيزة، ابن رصيف ميدان الساعة، الذى على حشيش حديقة الأورمان نمت، الذى على السلم الشمال تشعبطت، الذى سلطة قوطه لهفت وسلطة طحينة لحست، وعيش وملح أكلت وحمدت الله، العبد لله الذى هو أنا أكلت كل شىء وأى شىء مع الأفريكان ولكنى رفضت أن أذوق لحم القرود، رفضت بإصرار وبعناد ورأسى وألف جزمة كاوتش لا أقرب لحم القرود ولا ألمسه! ويا لحم القرود بينى وبينك حد الله لأسباب وجيهة وأخرى قبيحة، الأسباب الوجيهة أن القرد حيوان دمه خفيف، تداعبه نعم، تلاعبه أى نعم، تناغشه مافيش مانع، تعاكسه مافيش بأس، ولكن تأكله.. هذا على رأى مصطفى محمود هو المستحيل! والأسباب القبيحة أننى والقرود حسب رأى داروين أبناء عمومة، وحسب الشكل والهيئة أبناء أم واحدة وأب واحد، قرود أفريكيا الخالق الناطق العبد لله، قرود وجيهة لها شوارب دوجلاس وتسريحة شعرها خنافس، ذكية تكاد تتكلم، مثقفة تكاد ترطن باللسان! والقرد نفسه معلق عند الجزار متدلى من الخطاف كأنه متشعلق فى فرع شجرة معصعص كأنه أرنب، غالى الثمن كما خنزير خبيث الريحة كما مجرور مفتوح على الآخر! ومع أن القرود سارحة فى الغابة، وسارحة

فى الشارع، الا أن النوع الذى عند الجزار تربية حظيرة وصاحبها خواجا سقطت رأسه على قطعة أرض على ضفاف بحيرة جنيف!

الخواجا السويسرى كان يحتكر تجارة القرود على الشاطىء الغربى لافريكيا، كان عنده ألوف الصيادين، وكلهم أفريكان وسارحين فى الغابة ويدوخ دوخة الأرملة ويعود ومعه صيد وفير ويدفع السويسرى شلنات فى الصيد ويخفيه فى الحظيرة، وفى الحظيرة شفخانة، ودكاترة من بلاد بره، وعلف خصوصى لتسمين القرود ومنطقة لعزل القرود المريضة، ثم كنسلتو فى نهاية الأمر لتفنيط القرود وتصنيفها، وقرود تطلع على الجزار، وقرود تطلع على حدائق الحيوان، وقرود غلبانة وأمها داعية عليها، تطلع على الشارع، لكى تصنع عجين الفلاحة وتضرب سلام لكل عابر سبيل!

الخواجا السويسرى الناصح ابن الناصحة قبل أن تسطع شمس الحرية على أفريكيا نجح فى تهريب نصف ثروته إلى الخارج وعندما سطعت شمس إفريكيا كانت فلوسه كلها قد عبرت البحر إلى بنوك بره وعندما استقرت الأمور فى أفريكيا وتأكد لديه أن كل شىء قد صار فى يد الافريكان، ترك العمل مع القرود واعتزل وباع الحظيرة والأقفاص والشفخانة والآلات بملاليم لواحد خواجا تانى.. وهو الآن يسافر ويعود مرتين كل عام محاولا فى كل مرة تهريب مبلغ مما تبقى له فى أفريكيا، وحكمة الله أن صنف الخواجات هم أسرع الحيوانات إحساسا بالخطر، ولكن حكمة الله أنهم فقدوا حاسة الشم هذه المرة ربما كانوا جميعا مصابين بالزكام والتهاب الجيوب الأنفية، ففى لحظة احتدام الصراع على أرض أفريكيا، والمعركة شغالة على ودنه بين الافريكان والبيض البلچيك، والبيض الفرنساوى والبيض الانجليز، كان جميع البيض يعلمون أن الريح مع الافريكان وأن النصر النهائى لهم، ولكن خطأ بسيطا فى الحساب إرتكبه البيض، وكلفهم هذا الخطأ البسيط ثرواتهم الهائلة وأعمالهم الواسعة، كان الجميع يعتقدون أن الريح فى نهاية المطاف ستكون لحساب رجل أبيض آخر ليس من أوروبا، ولكن من بلاد بعيدة، من أمريكا! وكان البيض يعتقدون أن الامريكى سيكون للأوروبى كالبنيان المرصوص

يشد بعضه بعضا، وما دام الأمريكى الأبيض سيكون عنده النفوذ والفلوس، فكل شىء سيكون على ما يرام، وستصبح الحياة هنية ورضية كما كانت دائما وربما أحسن!

غير أن الأمور فى أفريكيا كانت متشقلبة على نحو لم يكن ينفع معها أى إصلاح، والأحوال كانت مهزوزة إلى درجة لم يكن يصلح لها أى علاج، ولم يكن بد من الثورة. وبعد الثورة السياسية لابد من ثورة اجتماعية، لترتفع بالذين شاركوا القرود فى الغابة، ولتهبط بالذين شاركوا الاله فى السماء.. ولم يكن أمام أفريكيا إلا طريق الاشتراكية! وكانت ضربة للخواجات طرحتهم أرضا كما انطرح المتختخ ليستون على أرض الحلقة! أنا شفت واحد منهم عجوز أو موظف حكومة طردوه من زمان على المعاش، شعر صدره أبيض شايب وشعر رأسه نافش ومائل للسواد، قفاه أعرض من وسطه، وفخذه ولا فخذ عجل لبانى عندالجزار، كل زيه شورت وقميص مفتوح وصندل رخيص، وسلسلة ذهب تتدلى من عنقه فى نهايتها صورة حسناء وصليب! وجالس كما الامبراطور فى فندق الامباسادور يشرب عصير الأناناس، ويرش كل ربع ساعة زجاجة كولونيا على أم رأسه! الخواجا هوفمان السويسراوى كان يترحم على أيام زمان فى أفريكيا، وأفريكيا جنة والجنة ليست فى حاجة إلى ثورة إنها فقط فى حاجة إلى تنسيق، ولم تكن أفريكيا فى حاجة إلى الاشتراكية لأن المشكلة الاجتماعية لم تكن حادة .. بل لم يكن ثمة مشاكل على الاطلاق! لا أزمة مساكن ولا أزمة توزيع ثروة، والأرض الصالحة للزراعة أكثر من الأرض المزروعة. والذى فى الغابة يأكل كالذى فى فندق الامباسادور! منطق الخواجا هوفمان الكاذب الذى كان يملك أربعة ملايين جنيه كل أهل أكرا يملكون الستر! والذى كان يتعالج فى سويسرا من الانفلونزا وتنقطع ساق الافريكى بالمنشار وتقلى فى الزيت اذا لدغه دبور زن على خراب عشه! وأفريكيا كانت جنة فعلا ولكن للخواجات، بيوت الخواجات مثل سراى عابدين، السلك الشائك حول الحديقة، والسلك الناعم حول النوافذ والأبواب! والمفروشات من باريس، والسيارات من ألمانيا وأجهزة تكييف الهواء من انجلترا، والملابس الداخلية من سويسرا،

والخارجية من إيطاليا، والمشروبات من اسكتلندا، والطعام وارد خصوصى من مطعم مكسيم! وفى البيت ألف خدام أفريكى وألف خفير، وحرس خصوصى بالسلاح، وعشر بنات أفريكان للأطفال! هذه الجنة لم تكن فى حاجة إلى تغيير! لأن التغيير لم يكن فى صالح الجنة!

خواجا آخر من دول عرفته فى بارات وينيبا الباقى له من أيام العز القديم قصر مهجور لا يستخدم منه الا حجرة وفراندة على المحيط! سكرى يشرب أردأ أنواع الكونياك ويلعب طول النهار بعصا البلياردو، مذهول لا يكاد يصدق أن الحياة انتهت على هذا النحو، مذعور يتصور أن السجن سيكون خاتمة حياته، الراجل الخواجا الهلكان الذى تصورته- لسذاجتى- محطم وصايع لم يكن حقيقة كذلك، لم يزل كالكلب يلعب بذيله، عرض على العبد الله ذات مساء خمسة جنيهات أفريكى مقابل كل جنيه استرلينى، ولما لم يكن معى جنيهات أفريكى ولا استرلينى فقد أبدى أعتذاره لهذا العرض وأدعى أنها لصديق مسافر إلى الخارج للعلاج! وست خوجاية مكرمشة الرقبة منتوفة رموش العين، معصعصة الساقين تستطيع بقصبة ساقها أن تذبح فرخة، ست متهتكة ومتهالكة شرهة تريد أن تشرب من الحياة قبل أن تنتهى، وتمص رحيق الدنيا قبل أن تذهب! البعيد جوزها كان صاحب أكبر مصنع للسلاح فى أفريكيا أيام الاستعمار! حراب يصنع، سهام يصنع! نبال يصنع، سكاكين يصنع، خناجر يصنع مطاوى يصنع، والأفريكان يشترون ويدفعون والخواجا يكسب فلوس بالكيلة وبالفلوس يؤسس شركات فى بلاد بره ويدخل شريك فى بنك فيما وراء البحار! والخواجا جوزها رجل أعمال ومشغول طول النهار، والمكاسب تلبخ، ولا وقت عنده للحب، ولا وقت أيضا للهزار، نهاره فى مصنع السلاح، وليله على مائدة القمار، والست حرمه سارحة تلطش فى مخاليق الله، والعيال الأفريكان أشداء كما الأسود، فحول كما العجول، متدفقين كما الأنهار والست تشرب حتى ترتوى وفى البداية كانت بشبابها تصطاد. وفى النهاية كانت فلوس جوزها الطعم الذى يجذب الضحية! فلما أفلت شمس الخواجات فى أفريكيا، صفى الزوج الناصح أعماله واستعد للرحيل، ومجنونة بنت

مجنونة الست حرمه لو سافرت معه، من ذا الذى يستطيع أن يروى ظمأها فى أوروبا الشاذة المتهالكة؟ شبان أوروبا الناعمون لا يستطيعون إطفاء نارها المشتعلة، هذا إذا وجدت من يقبل أن ينظر إليها بعين الرضا! أفريكيا هى البريمو وأفريكيا وبس، مصنع الرجال التمام، ولا أحد يستطيع أن يسيطر على امرأة بيضة شرهة مثل أفريكى يعدل المزاج! وحزنت المرأة فلا تبرح أفريكيا ولا تسافر، وحزن زوجها أيضا فأصر على الرحيل وساومها فساومته، ومنحها الطلاق وعدة ألوف من الجنيهات وغادر أفريكيا إلى بلاد بره وبقيت على الشاطىء الغربى لأفريكيا تبحطر فلوسها تحت فخذيها، وتدفع فلوسها للشديد القوى فى ميدان الغرام! وكلما تقدم بها العمر ارتفع الثمن الذى تدفعه، وانخفض الرصيد الذى فى البنك، وذات الصباح أستيقظت على كارثة .. الرصيد أصبح صفرا، وهى نفسها أصبحت فى حالة يرثى لها! ولكن أى شىء يهون وأى شىء محتمل ولا تغادر أفريكيا وهى على أى وضع تستطيع أن تعثر على صحبة مقابل، زجاجة كونياك أحمى من الزفت يشربها حتى يفقد عقله، وفى الظلام يصبح كل شىء عند الراغب المحموم سواء ويا ميت ندامة على المرأة المتهتكة المتهالكة المريضة بداء العرى، ملابسها تكشف أكثر مما تخفى، منظرها يسد النفس ويغم الفؤاد، عروق ساقها كمواسير المجارى، زارقة ونافرة ومتشابكة كأسلاك الكهرباء، شعرها ناحل من الأمام وصالعة وفروة رأسها مكحوتة كما بلاط متخرب فى قصر من بتوع زمان! وعلى وجهها المقدد الملدن مساحيق بخمسة جنيهات، وحول رقبتها بودرة كأنها كعكة عيد مرشوش عليها سكر ناعم بدون حساب! والست مسكينة يا حسرة قلبى، فقدت فلوسها وفقدت شبابها وفقدت عقلها وأصبحت مجنونة تبكى لأقل حركة وتلطم بعد كأس واحد من الشراب! وعواجيز أفريكيا يسخرون منها، وشبان أفريكيا فى غنى عنها، فأفريكيا عامرة دائما بهذا الصنف من النساء! ستجد دائما ستات على أعتاب الشيخوخة تتنقل فى أفريكيا كالغربان، يلهثن وراء قطار اللذة بكل وسيلة وبأى وسيلة، معهن شنطة ملابس وشنطة فلوس، وستجد نساء من طراز آخر، ستات فى عمر الورد، حلوين كما البغاشة، منفوخين كما التفاح،

خدودهن مشدودة كما الغربال، شعورهن سايحة كما السمن البلدى، هؤلاء جئن للتجارة ، وهى تجارة لا تحتاج إلى رأسمال، سهرة حلوة، وضحكة ناعمة، وقعدة طرية، وتنهال الشيكات والفلوسات ودائما ستجد مع هذا الطراز من النساء زوجا طيبا يجيد تغميض العيون، وينام فى الوقت المناسب، ويعتذر وأنت جالس مع الست لموعد هام، وقد يسألك أحيانا عن مائة جنيه فكة، وأحيانا يثور ويتشاجر مع الست أمامك لأنها ترغب فى عربة مرسيدس آخر طراز! أنا التقيت بواحدة من دول، حلوة كما لهطة القشطة، ناضجة كما الجوافة بتاعة حلوان، معسلة كما التين بتاع برشوم، ريحتها طعمة كما بتاع العمار يا مشمش! والأخ زوجها راجل طويل ومبروم ولابس نظارات ، ووجيه أوجه من بطل سينما يتكلم بهدوء ولا فيلسوف على جبل أثينا، مقدام ولا هنيبال فى زمانه، ولكن الرجل مسكين مجوف من الداخل، وهو يحب الطعام ويحب الرقص ويحب السهر ويحب السفر، ولكنه فيلسوف لا يحب الفلوس! وهو من أنصار زمان، زمان كانت التجارة حلوة، لم تكن معقدة ولم تكن صعبة، المقايضة هى خير وسيلة للحياة، الرأسمالى المستغل يدخل السوق برأسمال ويخرج من السوق برأسمال أكبر والرأسمالى الطيب يدخل السوق بسلعة ويخرج بسلعة، وهو رأسمالى وطيب، ورأسماله ست حلوة مهاودة، ضحكتها لها رنين ولغتها لها سحر! وهو يدخل بها السوق ويخرج من السوق بسيارة كاديلاك، بتذاكر طيارة، بفاتورة لوكاندة، المهم أنه ليس مستغلا، أنه فقط يريد أن يعيش! الست الحلوة وجوزها التقيت بهما ذات مساء حار كالحريقة القايدة فى أفريكيا، الراجل العبيط ظن البعيد لله لبنانى مليونير فتبسط معى وتلطف وحكمة الله أن أغنى ناس على الشاطىء الغربى فى أفريكيا كلهم من لبنان وكلهم أصحاب ملايين، ورغم جلبابى وتلبابى، ليست لها أى معنى ولكنه السجع اللعين قاتله المولى! أقول رغم جلبابى وتلبابى فقد اختصتنى المرأة بحنانها وجمالها ولعبت معى بنج بونج رغم أنى لا أجيد اللعب، ولعبت معها بلياردو وأنا أظن أنها حكشة، وجاعت الحلوة اللعينة فمالت على أذنى تطلب أكلا، وأعددت لها ترابيزة، وصفقت أطلب نب جرسونا، وطلبت للست ديك رومى وسلطة خضرا وفواكه بالسبت وقهوة على الريحة

وتلطفت أكثر فاجلستنى على يمينها، وتنازل جوزها فدعانى إلى الأكل معاه وأكلت حتى شبعت، وأنا حتى هذه اللحظة إذا أكلت أكلة حلوة أصرخ من اللذة، اذا لهفت فرخة مشوية أبكى من شدة الانشكاع ، وإذا رأيت العبد لله يأكل أكلة طعمة فستحكم على العبد لله بأنه مجنون، لا بروتوكل ولا إتيكيت ولا دياولو، ولذلك أحرم من الطعام فى الموائد المحترمة، أكلت مرة مع سبعة ملوك على مائدة واحدة فى مؤتمر الملوك والرؤساء العرب فى بيروت خلال العدوان، وعلى الترابيزة ديوك رومى كما الخرفان، وخرفان كما العجول، وأطباق حلو تشيب الطفل الرضيع، وساعة على المائدة لا أمد يد ولا أفتح بق، ومصارينى تكاد تزعق بالصوت الحيانى تطلب أكلا ولكن العبد لله لايستطيع لأنى لو أكلت لأصبحت فضيحة بجلاجل، والست معجبة غاية الاعجاب، مبسوطة نهاية الانبساط ، على الرشاقة والاناقة التى هى طابع العبد لله، وبعد الطعام حضر الجرسون وكانت فضيحة، الست الحلوة ظنتنى لبنانى، وأنا الجعان الفجعان ظننت أن الست طيبه وغنيه وفى أموالها حق معلوم للسائل والمحروم، ولما كنت أنا المصفق وأنا الطالب فقد دفعت آخر شلن فى جيبى وأخذت بالباقى علقة! وحلفت ألفين يمين لا أهوب على واحدة حلوة ولا أبغبغ مع ست معجبانية، وما دام لا خيل عندى أهديها ولا مال، فلانكمش فى حالى وأجلس فى أمان الله، ولكن عقلى الزنخ حرضنى بعد ذلك، الحياة تجارب، والتعليم ليس ببلاش، التعليم بالفلوس. أو بالضرب على الأقافى، وما دام فلوس لا أملك، فأنا قفا أملك ، وعريض والحمد لله، طويل مضبوط، يستحمل ضرب أزلى، ولتكن الأكف الهابطة على قفاى العريض هى مصاريف الدراسة! لقحت جتتى مرة أخرى على بار على الشاطىء، السقف من خشب الجوز، والحيطان فى لون الورد، والأرض سجاد عجمى والمشروب ويسكى حلو، والضوء خافت والموسيقى حالمة، وترابيزة حلوة فى الوسط، بنت بيضة وبنت سودة ومعهم رجل أسود، ثلاثة ورابعهم أنا، صحبة حلوة وفاهمين حالى، فأنا مفلس وغلبان وكفران وأستحق الحسنة وطالب حب ولعب وخمسة هزار، يخففوا عنى المواجع! والست البيضة هى كل شىء فى القعدة، محسنة ربنا يطول عمرها طلبت للعبد لله ويسكى، كريمة طلبت لى

طعام، بنت ناس زغزغتني وأضحكتنى وقدمت لى البنت السودة، وأشهد وأحلف أنها أجمل من ملكات الجمال، وسهرة حلوة ستكون وسأمسح بلاوى الليالى الماضية، وسأغنى كما حمار وحشى وسأرقص كما جاموسة وسألعب مع البنت السودة لعبة القط والفأر! ولكن ولد أفريكى طيب دخل البار فى الوقت المناسب وسلم من بعيد فتجاهلته، فأنا فى ساعة التجلى لا أرغب كثيرا فى السلام والكلام! ولكن الولد الأفريكى الطيب شدنى من ذراعى وقال: لاتذهب معهم، أنهم عصابة والست البيضة هى رأس العصابة وعقلها المفكر، وأنت يا غلبان، فراخ ستأكل وويسكى ستشرب، وعلى الموسيقى سترقص وليلة حلوة ستقضى، ولكنك ستكون بطل فى رواية سيتم تسجيلها بالكاميرا فى غفلة عين، وستصبح صورتك غدا فى متناول الجميع وستباع فى السوق بقرش صاغ واحد، وستصبح فضيحة ولا حرامى أتعكم فى جامع، ولا راجل مش جدع لا مؤاخذة أتمسك فى مولد سيدى إبراهيم! وخرجت من البار وتوجهت إلى الشارع، ومن الشارع إلى أبعد مكان استطاعت ساقى أن تحملنى اليه! وتوبة من دى النوبة لا أدخل بارا على الشاطىء، بقايا الخواجات فى أفريكيا، أوكار لاتزال تشغل حتى الآن بكل أنواع السفلات! وسنحكى عن دخانيق أفريكيا وسراديب أفريكيا والبؤر التحتية فى أفريكيا ..

الجنة . ومبرات .. والست أبابا

معذرة لإخواني النشالين على رصيف محطة مصر وفي ميدان السيدة وفي ترماي نمرة ٦، معذرة لهم جميعا سأستعير منهم لفظا من قاموس النشل المصري هو لفظ الواحدة، والواحدة يا أخواني المنشولين هي المحفظة، ويقولون كل الواحدة، يعني إلهف المحفظة، ويقولون أيضا ضم الواحدة، ويقال سف الواحدة .. والله أعلم!

المهم يا أخواني النشالين والمنشولين .. أفريكيا لم تكن قارة ولكنها كانت واحدة، نشالين أوروبا الحلنجية الزملطحية هبروها ومزقوها ووزعوا الفلوس حسب دور كل منهم في عملية النشل، الذي شاغل الزبون له ربع الواحدة، الذي أكل الواحدة له نصيب الأسد ، والناضورجي الذي راقب الطريق خوفا من المخبرين وعساكر البوليس له أيضا حسنة!

ولقد قامت أسبانيا والبرتغال بمشاغلة الزبون، وهبرت انجلترا وفرنسا الواحدة، واكتفت بلجيكا وألمانيا بدور الناضورجي، فلما تمردت ألمانيا على هذا الدور طردها النشالون الكبار في حرب ١٤ وانهالوا على الواحدة ينزحون منها آخر بريزة وآخر شلن وآخر قرش تعريفه.. ولو امتد بهم الأجل قرنا آخر لنزحوها إلى آخر عشرين خردة وإلى آخر بارة وإلى آخر صولد!

ومن أجل الفلوس فعل النشالون كل شيء وأي شيء، استولوا على الأرض

وباعوا الناس في المزاد، وهبروا الغابات والحيوانات وفحتوا الأرض، فلما أنقفلت كل الأبواب وانسدت كل المسالك وتاجروا بالدين واتجروا بالاعراض!

وللحكيم الأفريكي حكمة تقطع نياط القلب «في البداية كان معنا الفلوس وكان معهم الانجيل وفي النهاية أخذوا الفلوس منا وأعطونا كتاب الرب!»

ولذلك ستجد فى أفريكيا محلات ولا مؤاخذة فشر بيوت الجيشا فى اليابان، محلات آخر مودرن وآخر طراز، وستجد كل شىء فيها أفريكيا أسود، البنات، والخدم، والحشم، الا الكيس فصاحبه رجل أبيض!

العبد لله كان يتمشى على شاطىء البحر فى أفريكيا وعلى الصفين محلات ولا البيجال فى باريس، بارات صغيرة منظرها حشمة، وتدخل فيها فلا تلمح شيئا، أنكت من هذا على الجدران صور القديسين والشهداء، صور ناس طيبين وحول الرءوس هالات فج النور منها!

وعندما أقتحمت بار الكنارى- وبالعربى بار البط- لم أجد شيئا إلا بارمان أصلع حالق بمنشار، وواحد سكرى يتناوم، وبنت سودة حلوة، وجهها زى الحلاوة العسلية، مسمسمة زى الكتكت، شعرها مفلفل زى العروسة اللعبة، جسمها مفنصل مفصص كأنها بنت بلد بريشة جمال كامل! ثوب البنت بسيط وأنيق، ومساحيقها نادرة، ومن عنقها يتدلى صليب على النهود يتأرجح! أنا ظننتها لخيبتى تلميذة فى مدرسة داكار الاعدادية، بنت ناس طيبين منتظرة واحدة قريبتها، مسافرة مثل حالى فاتها القطار فجاءت إلى البار تسكر وتتمنجه! ولكن لفت نظرى كتابات كثيرة على الحيطان وبألوان فاقعة، رحت أقرأ ولم أفهم. الكتابة كلها بالفرنساوى، وأخوكم يفهم فى الفرنساوى كما يفهم سيد الملاح فى علم الذرة..

ملحوظة - سيد الملاح - يفهم كويس فى الذرة!!!

الله يخرب بيت الجهل، لأن حديث النبى المختار من تعلم لغة قوم أمن شرهم، ولو أنا تعلمت لغة الفرنساوى لأمنت شر البت الكرملة.. البت الذكية الفهلوية أدركت أننى مقطف فنهضت وجاءت لحد عندى، وسألتنى.. تعرف أنجليزى؟..

أجبت: أعرف على ما قسم!

أخوكم الضعيف يخاف أن يجيب بنعم اذا سألنى أحد.. هل تعرف الانجليزية؟

السبب يا أخوتى، أننى عندما زرت لندن أول مرة دخلت مدرسة فى أكسفورد

ستريت، ودخل الأستاذ، أنجليزى تمام، يتكلم من طاقة واحدة من مناخيره، والطاقة الأخرى يستعملها فى الشهيق والزفير!

سألنى الواد الأستاذ: هل تعرف شيئا من الانجليزية؟

فقلت على طريقة ابن البلد البلطجى: نعم.. أنا أعرف الانجليزية كويس جدا. ونظر نحوى فى بلاهة لا أدرى، فى خبث لا أعرف، وناولنى كتابا وقال أقرأ. وقرأت وتلعثمت وهطل العرق على وجهى كما تهطل أمطار الصيف على جبال، بلاد الحبش، وانكسفت كسفة دباغ ظبطوه على ترابيزة عشا بدون دعوة ..

وفى النهاية سألته أنا: كم عام يلزمنى يا خواجا لأعرف الانجليزية بدرجة جيد جدا؟

وقال الواد الأستاذ الانجليزى : بدرجة جيد جدا؟

-آه يا خواجا...

وفكر قليلا وقال: حوالى ... مائة عام!!

وعرفت بعد ذلك أنها ليست نكتة، فليس فى العالم من يجيد الانجليزية بدرجة جيد جدا.. كان فى العالم اثنان فقط يتكلمان الانجليزية كما ينبغى أن تكون تشرشل، والثانى المرحوم نهرو... وكانا يتكلمان الانجليزية بدرجة جيد وبدون جدا!! لذلك لم أكن متواضعا عندما أجبت على سؤال البنت الحلوة .. على ما قسم بل كنت مغرورا أشد الغرور!! المهم، البنت السودة الطعمة قرأت الكتابة وترجمت، على الحيطان مواعظ هلس وحكم هلس! وكلمات مأثورة تصلح شعارا لغرزة.. والمرأة القبيحة ضمان لك من دلال الحلوين، واللذة هى قمة جبل الحياة، والشجعان هم الذين يتسلقون الجبل اليها، وكلمات أخرى لا أستطيع نقلها هنا لأن أى قانون عقوبات فى العالم يعاقب عليها حتى قانون عقوبات المسرح الكوميدى. البنت الحلوة الطعمة غمزتها بسيجارة انجليزى فغمزتنى بسيجارة ملفوفة لها طعم العجمية ورائحة المسك، يبدو أن شكلى- والله أعلم- يوحى بالعبط أو يوحى بالثر .. بعد نفسين من السيجارة شدتنى البنت من يدى واقتحمت بابا لا يلفت النظر

الباب الصغير الضئيل الحقير يؤدى إلى شيء باهر كالحقيقة غامض كالأحلام، صالة ولا صالة تزحلق على الثلج، باركيه ناعم فشر صلعة باشا فخيم الصلع! على الحيطان صور بالكاميرا ولوحات بالزيت، تصلح كلها متحف لتاريخ العلاقة بين المرأة والسيد الرجل، وكل شيء فى الصالة وأى شيء مخصوص وتمام من أجل اللذة، الأنوار خافتة، الموسيقى كأنها نغمات صادرة من قلب المحيط ، البار من خشب الورد، فى الاركان موائد خضراء عليها مفارش جوخ فشر جبة الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، الحيطان نفسها مبطنة بالقطيفة، حمراء كما البطيخ المجيدى، لينه كما الفطير المشلتت.. عجائب الحياة فى هذا المكان أن كل الرجال بيض كالشمع وكل البنات سود كما أرض المنوفية، والرجال سقعانين مرتاحين مدلدلين والبنات نار والعة، جسم وكسم وشكل سبحان الذى صور والذى دور!

البنت السودة الطعمة التى هبرتنى وأدخلتنى الجنة- وعلى فكرة اسمه الجنة- البنت الطعمة الحلوة اسمها ابابا، حبشية هاجرت من شرق القارة إلى غربها. من أديس أبابا إلى الخرطوم إلى كانو إلى لاوس إلى أكرا إلى داكار، كانت تملك محلا فى العاصمة الحبشية، وهبط عليها ذات مساء راجل أوروباوى من الدقة القديمة، ساعة جيبه أكبر من الرغيف البلدى، كتينة الساعة ذهب خالص بندقى، برنيطة سيادته بحوافى ولا برنيطة واد شقى من بتوع تكساس، الحذاء أسود أجلسيه لميع عليها مفرش جوخ معتبر، أسفل ذقنه لغد ولا رأس عيل صغير، محفظته منتفخة ولا بنك كاتنجا! وأعجب الرجل بالمكان وبالست صاحبة المكان وعرض عليها الزواج ووافقت على الفور، وفى أول يوم وصلت فيه داكار ملكة أدركت أن الرجل الذى هو زوجها، ملك الليل فى داكار، وداكار هى ملكة الليل فى أفريكيا، كانت زمان مخزن لتخزين العبيد وتصديرهم للعالم، واليوم أصبحت همزة الوصل بين أفريكيا وأمريكيا، ومن داكار عدل تطلع على أمريكا الجنوبية، ومن داكار تستطيع أن تتوغل فى القارة إلى أى أتجاه، الراجل الأوروباوى السمين أبو لغد تخين تزوج البنت الحبشية ليستفيد بعلمها وبذوقها، ولان الراجل الأوروباوى مليان ودفيان وتقيل فقد قبلت البنت الحبشية، وصفت أعمالها فى أديس أبابا وفى

الخرطوم، فقد كانت تملك أكثر من بيت للمتعة على شاطىء النيل الابيض! وشمرت البنت عن ساعدها واشتغلت بهمة، جميع البنات البيض طردتهن من بيوت داكار، الرجل الاوروباوى الوافد على أفريكيا من وراء البحار لا يريد أن يرى نفس المناظر التى يراها فى نيويورك أو باريس أو لندن أنه قادم إلى أفريكيا ليعيش فى جو أفريكيا، والمرأة البيضة المهلبية ستفسد المنظر، وأنتعشت أعمال الرجل الملظلظ .

على يد الست أبابا ، وابابا يعنى الزهرة ، وهى فعلا زهرة ، شكلا ورائحة وطعما ، ذكية تعرف تلاغى ، جريئة لا تخاف ، وابابا مسحت القارة طولا وعرضا، ومسحتها كيبتاون الى الجزائر ومن نيروبى الى ساحل العاج ، وابابا الخبيرة العليمة تعرف إن أجمل ليل فى افريكيا كان فى ليوبولد فيل قبل ان تحترق الكونغو بنار الثورة .. ويأتى بعدها اديس ابابا فنيروبى ثم داكار فى آخر قائمة الدورى ؟

وملوك الليل فى كل هذه الأماكن عصابة واحدة وشركة واحدة وعلى اتصال دائم لتحسين العمل ورفع مستوى الشغل ، ولأنهم أصحاب مصلحة واحدة ، فقد اجتمعوا يوما ضد الثورة المشتعلة فى أفريكيا .. بيوت الهوى والغرام والمتعة اللذيذة كانت مراكز للثورة المضادة ، البت جوليانا ملكة الليل فى الكونغو كانت أكبر أعوان تشومبى ضد لومومبا ، وعندما قبضوا عليه وجرجروه فى الحبال ، سهر الجنرال تشومبى ، الذى هو فى الجنرال تمام كما الجنرال اليكتريك والجنرال موتور ، سهر حتى الفجر وفى الصباح منحته جانيت وسام ربطة الرأس، وهو إكليل من الذهب الخالص ، عليه قطع تشبه العملة على كل منها صكت صورة جانيت عارية حتى من السوتيان ! ولأن العين كانت مفنجلة والمحفظة مفلسة. فقد اكتفى العبد لله بالسنكحة والبحلقة .

شارع الميناء فى داكار يمتلأ بكل عجيبة وعجيب ، محلات لشرب البيرة . ومحلات لتدخين المسائل ، وهى مسائل ليست غبارة ولكن غبرة ، ريحتها كما ريحة كلب ميت على الطريق الزراعى ، نفس واحد منها يقلب ثور صومالى ، والشارع نفسه يعج بالناس من كل الاجناس ، بحارة من بنما ، وخواجات ركاب من أمريكا

وسياح من أوروبا ، وصياع من البرتقال ، وتجار من لبنان ، وناس بشوارب من اسكتلندا ، وناس بذقون من الهند ، وكل شيء حاضر وجاهز وعلى ودنه كما بيروت في زمانها ، محلات ستربتيز تلاقي ، محلات قمار تلاقي ، محلات نصب تلاقي ويا بخت من ينزل داكار ويطلع سالم ، وعيال قبارصة كما القشاط ، معهم مسدسات صوت ومطاوي ، ومقصات يضربون ، روسيات يبطحون ، ركب يقفعون ، محافظ ينشلون قماش مغشوش يبيعون ، واحد قتيل يهربون ..

واذا كان اللبنانيون والهنود معهم مفاتيح الباب المشروع في داكار ، فالعيال القبارصة معهم مفاتيح الأبواب الخلفية !

واذا كان الأوروبي السمين هو مالك الليل ، فالعيال القبارصة هم ملوك ملك الليل نفسه ، لأنهم رسوم على الكباريهات يحصلون ، وفردة من البنات يقبضون ، ومن يحتج يأكل لما يشبع .. وربما بعد ما يشبع !!

أنا نفسي كنت هاكل علقة ولا زنجي في بلاد الامريكان ، البت مبرات عجبتني وشغلتني ، وحدثتها وحدثتني ، وضحكتها وضحكتني ، والبت مبرات حبشية ، وعجبي على الحبشيات أهل لطافة وظرافة ونظافة آخر تمام !ومبرات يعني النور ، يعني الضوء ، علي جبينها الأسمراني صليب ، مدقوق ، وعلى ذقنها صليب آخر ، وحول عنقها صليب ، وعندها من المبررات ما يجعلها أكثر الناس ايمانا ، لا تصدق ان الناس الطيبين هم أكثر الناس إيمانا ، أنا أعرف واحد مأمور مركز كان في الريف منذ عدة أعوام ، وكان أغنى من هولاكو ، وأظلم من فاروق وكانت المسبحة دائما بين أصابعه ، وسجادة الصلاة دائما خلف ظهره ، وكان يربط رأسه بفتلة صوف خضرا وكان رأسه مجزوعة أو مقصوعة ، وكان من أهل الطريقة الخلوتية ، ومن أتباع محمد الكحلاوي ! وابن قلاوون أيضا كان عهده أكثر العهود ظلما وظلاما وغما وهما ، وجثث ميتة في النيل ألقي ، وجثث صاحية على الخوازيق وضع ، ومؤامرات صنع ، وحمامات دم عمل ، وفي الوقت ذاته أقام مائة مسجد ! شيء طبيعي لعل الله يغفر له سيئاته ويتقبله قبولا حسنا!

البنت مبرات من هول ما صنعت ومن هول ما ارتكبت ، دقت الصليب على

جبهتها وعلى ذقنها ، ولو تقدر لدقت الصليب على بطنها وعلى ظهرها ! والله على مبرات وانا قاعد معها ، على رصيف الميناء والهوا الطازه يسفخ فى عظمتـ . والبنت فى ثوب يصلح للبحر ولا يصلح للشارع ، وأنا بالجلباب السكروتة والشبشب زنوبة ، والسبحة بين صوابعى ، والسيجارة البلمونت بين شفتى والريح آخر هفهفة والجو آخر مملكه والبنت مبرات حساسة وحشاشة ، ضحكتها ترن ولا ضبة مسحراتى ، وعيونها بتبرق ولا كلوب فى قهوة على ترعة المحمودية ، وفجأتن عـ رأى واحد صاحبى ، هبط علينا واد ابيض كما بتوع روايات هوليود ، بشورت أزرق وفانلة صنع المحلة ، وجزمة كاوتش من بتوع باتا ، وشعر ناعم مسبسب نازل على قفاه ، وسوالف ياميت حلاوة ولا سوالف سيد درويش ، واكتاف ولا أكتاف سيد نصير ، وعود ولا رضا بتاع الاسماعيلى ، ورجولة ولا ميمى درويش ، ونظر للعبد لله كأنه ينظر الى ذكر كابوريا ، ولهف البت مبرات قلمين وثلاثة ، ووضعت أيدى على القزازة التى أمامى أبغى ضرباً ، فلما رأيت الهيئة فشخت بقى عن ابتسامة وقربعث من القزازة كأنها هواية عندى من زمان !

ويا ميت ندامة على اللى حب ولا طالشى ، الواد اياه قبرصى تمام ، وله سلطان على البنت مبرات ، ولا سلطان الاستعمار على الولد البدر ، وبعد الأقلام التى طرقعت ورنت ، سحب البنت مبرات من إيدها ، وباسها كما الواد الممثل فى فيلم انتاج جولدوين ماير ! ..

وبقيت وحدى مذعوراً اقرأ الفاتحة دورا ، واقرأ الصمدية دور آخر ، ثم اطلقت ساقى للريح هربا الى الميناء !

أغرب شىء سمعته فى داكار ان بعض المسلمين الحجاج يسحبهم المتعهدون من قلب القارة الى شاطىء داكار باعتبار ان الحج هناك .

حكاية سمعتها ولا استبعدها ، فكل شىء ممكن وكل شىء ماشى فى داكار بيوت المتعة لا تكتفى بتقديم المتعة فقط ، ولكنها تقوم بتصديرها خارج الحدو والرجل الأبيض الذى ذاق كل أنواع اللذة ، وتمرمغ كما الحمار لا مؤخذاة فى كـ انواع المتعة ، أصبح ملولا يريد ان يجرب شيئا آخر جديدا ! وفى أوروبا البنـ

الآن معجبة بالرجل الأسود ، فى شوارع لندن وباريس وبروكسل . كل بنت كما لهطة القشطة ساحبة واد كما قطعة الفحم ، والبنت الأوربية الشاذة هى التى تحب الرجل الأبيض أما البنت السوية المستوية فهى التى تحب الرجل الأسود الفطيس.الرجل الأبيض اليوم يقلد الست بتاعته ، وكل راجل أبيض يموت فى بنت سودة ، وبعض البيض غير متوفر لهم السفر الى حيث موطن البنت السودة ، فلا أقل من أن تنتقل البنت السودة الى حيث موطن الرجل الابيض . واليوم تعبر البحر الى أوروبا قوافل وعليها عبيد ، ولكن الصنف كله نساء . تجار الليل فى افريكيا هم أصحاب البضاعة ، وهؤلاء البنات شحنة مرسلة من الباب للباب الى أحياء الدعارة فى باريس وفى لندن وفى لاهاى وفى فرانكفورت ! ليس هذا فقط ولكنهم يشحنون ايضا خدامات للعمل فى أوروبا ... والبنت الافريكية سعرها أرخص من تراب لندن ! وهى فى الخدمة بريمو ، تخدم وتغسل وتطبخ بشلنات لا تكفى لوجبة طعام فى بلاد بره . افريكيا الغلبانة خطفوا منها رجالها فى الماضى واليوم يخطفون منها نساءها .. بؤر الرذيلة فى افريكيا أشياء لا تخيف ، وهى على عكس مثيلاتها فى أوروبا لها نفس الشكل ولكن دلالتها عكسية . فى أوروبا هى قمة حضارة ، وفى أفريكيا هى علامة على نهاية نظام . النظام الذى استقر واستمر خسمائة عام لا تزال هذه بقاياه .. ولكنها بقايا كالشمع تسيح الآن تحت شمس الثورة فى أفريكيا . ستجد هذه البقايا موجودة بكثرة فى البلاد التى تقاتل الآن معركة المصير ! وهى الآن مجرد فلول تهرب وتتجمع فى مراكز فى انتظار اللحظات الحسمة وموعدها فى أفريكيا قريب !

فى غانا مثلا - فى عهد نكروما - بنات الليل - مخلفات عصر الاستعمار - يعملن الآن فى محلات البيع والشراء ، وبعضهن يعملن الآن فى حقول الكاكاو . اكبر مراكز بيع اللحوم البشرية للمتعة والمزاج فى داكار وفى كاتنجا وفى انجولا وفى روديسيا وفى رأس الرجاء الصالح أو الطالح لو كانت الاسماء تنطبق فعلا على المسميات !

وعندما تؤمم افريكيا ثروات البيض الأغنياء فهى تسترد لأهلها أحقر عملة تضخمت من عرق النهود وعرق الافخاذ . ملوك الليل فى افريكيا الناصحين

المفتحين ، كسبوا من النساء وبنوا بالفلوس فبريكات سجاير وشركات خمور ومصانع سلاح . ملك الليل زوج الست ابابا هو ملك مكاتب تصدير الكاوتشوك والقصدير والكاكاو !

الرجل القواد أصبح أكثر الناس احتراما فى الهيئة الإجتماعية وأكثر الناس نفوذا هناك . ولو فيه عدل ولو فيه محكمة عادلة لحكموا على الرجل السمين بالتخريط كما الملوخية وبالتمليح كما الفسيخ ، وبالتقطيع كما لحمة الرأس ! ليس البيض فقط وحق الله ولكن معهم ايضا بعض السود الدفيانين المليانين .. وذنب هؤلاء أكبر !

وأنا فى اكرا حكمت المحاكم على ثلاثة من كبار الأثرياء بالسجن مدى الحياة لأنهم نصبوا على الحكومة فى صفقة ولا صفقة السلاح الفاسد فى فلسطين . الأثرياء الثلاثة كانوا عملاء الاستعمار وقلنا معلهش . ثرواتهم مشبوهة وقلنا معلهش ، ومشوا مع الثورة وقلنا زى بعضه ، واشتغلوا مع العهد الجديد فى افريقيا وكسبوا من وراه وقلنا ماشى وباب الثورة يتسع للجميع ..

ولكن الحادثة التى جرت تثبت ان الحية لا يمكن ان تتحول الى دودة ، والكلب لايصبح أسداً ولو غير جلده ، والحمار لا يصبح حكيم الزمان ولو ارتدى نظارة بشنبر سلك !

الأثرياء الثلاثة بتوع غانا وردوا للحكومة آلات لرش المبيدات ، الآلة بخمسين جنيه استرلينياً . ولكن الآلة كانت خسرانة ، ومش بس كده ولكن الالة بعشرين جنيه ثمنها فى لندن فباعوها بخمسين جنيها للحكومة وهبروا مليون جنيه مكسب من عرق ودم الشعب .. والثلاثة مركزهم لندن فأرسلت الحكومة تطلب منهم الحضور من أجل صفقة جديدة وصدقوا العبط فحضروا على طائرة سريعة . وفى المحكمة لطموا وعيطوا كما النساء خلف ميت طالع من حوارى الجيزة وسجنوهم مدى الحياة وصادروا أموالهم فى غانا ..

أولاد الهرمة حطموا العالم الذى كانوا أسياده ، ويحاولون اليوم تحطيم العهد الجديد . ملعون أبو الفلوس تعمى العيون وتضع غشاوة على العقول . وبدلا من أن

تشبع الانسان تتحول الى جيفة يتبعها الانسان كالكلب . ولكنها دائما تقوده الى السجن وتقوده الى المشنقة وتقوده الى اللعنة والى البصق على الوجه !

ومن أجل الفلوس تاجروا فى افريكيا بكل شىء ، بالناس وبالارض وبالعرض وبالدين ! ولكنها الفلوس محركة التاريخ وصانعة الثورات وسر كل شىء حقير وكل شىء عظيم على هذه الأرض ..

وما أكثر حكايات الفلوس وأصحاب الفلوس وعديمى الفلوس فى افريكيا ، متعكم الله بالفلوس الحلال وجنبكم شر الفلوس الحرام ..

□□□

الغروب .. وبعد الغـروب

افريكياالقديمة تتلاشى الآن وتختفى لتفسح الطريق أمام افريكيا الجديدة . افريكيا الصيد والقنص والغابات الكثيفة والرقص ملط زلط فى طريقها الى الزوال .. وافريكيا الثورة والاشتراكية والعلوم الحديثة تأخذ طريقها الآن فتية وقوية لتحتل مكانها تحت الشمس . غير ان عملية التحويل تلقى عقبات أعلى من جبل المقطم .. وتصادف مطبات أعمق من البحر الأبيض ! جماعة المنتفعين بافريكيا يقاتلون الآن معركتهم الأخيرة ! فى سبيل الاحتفاظ بشىء .. أى شىء ! .

وهؤلاء المنتفعون أدنياء كما الضباع ، حقراء كما الجرابيع ، أرذال كما الجراد المغير ! ولقد حاربوا الثورة الافريكية فى البداية بالسلاح ، فلما فشلوا لجئوا الى الحرب فى الظلام ، وهم الآن تجار السوق السوداء ، وزعماء عصابات التهريب والتهليب الله يخرب بيتهم وبيت آبوهم ، بيض كلهم هؤلاء اللصوص ومعهم أيضا بعض العملاء الأفريكان أصحاب السطوة والنفوذ فى الزمن القديم !

أحد هؤلاء أبيض ومن الشرق الاوسط اشترى مرة كل مدينة أكرا بمائة جنيه لا تزيد ، وكتب معاهدة مع زعماء القبائل يتعهدون فيها بحمايته من أى عدوان ، مقابل ألف متر قماش كستور كل عام ، وكسب الأبيض الفهلوى نصف مليون جنيه من بيع أراضى أكرا لأهلها الأفريكان ! احفاد هذا الأبيض النصاب يعملون الآن بجنون فى التهريب ، مقابل كل جنيه استرلينى يدفعون خمسة جنيهات افريكية . عملية تكسير فى ضلوع غانا الفتية ، ومص دم من عروقها ، ليس بالشفاعة ولكن عن طريق الغب مباشرة بالفم ، ولا واحد مفجوع عاكم سلطانية طرشى بلدى الله عليها !

ولكن .. قبل أن يأخذنا الحديث ينبغى أن نحكى لكم قصة الثورة والثوار فى افريكيا . وما أحلى الحديث عنها وما أحلى الحكايات فيها وما أغرب وأعجب ما حدث ويحدث حتى الآن ! عندما اشتعلت نار الثورة فى افريكيا اشترك نيب

الجميع. أغنياء يملكون الضيـاع ومعـهم فلوس فى البنوك ، وعندهم حـشم وخـدم وخـير الله كـثـير ، ولكن لأن عين الانسان فـارغـة ولا يملأها الا التـراب ، فـقـد ثار السادة الاغنياء ليغتنوا أكثر ! فـهم أغنياء بحكم أنهم خدامون للسادة البيض ، فلو انطرد البيض فسيكون هؤلاء هم السادة الجدد ، وسـصـبح الجميع خدامين عندهم وبدلا من المال وحده ، سيصبح عندهم المال والسلطة والعمر الطويل ! ومع الأغنياء إشترك أيضا أفندية بكرافتات ملونة وقماش إنجليزى مخطط ، وغاية الثورة عندهم أن يتكلم الناس ، وأن يكون لهم حق البـغـبـغـة بالكلام ! وهؤلاء حلمـوا بالثـورة فى جنينة هايد بارك . وعلى سلم الجمعية الوطنية الفرنسية أيام الجمهورية الرابعة ، وغـاية الديموقـرطيـة عندهم .. هـى حـرية الكلام ولكن هؤلاء الأفـندية نسـوا أو ربما تناسـوا أن حق الكلام يصـبح فى النهاية لمن يأكل أكـثر ويعمل اقل ! لانه سيكون لدى هؤلاء فرصة للسهر والاجتماع والكلام . أما الفلاح الكفران الغلبان الذى يعمل فى الحـقل من النجـمـة لغروب الشـمس .. هـذا الفـلاح لن يجـد فـرصـة حـتى .. للاستماع !!

المهم أن الثورة قـامت ، وقـام معـها كل الناس .. العـاطل الذى يبـحث عن عمل والفلاح الذى يبـحث عن أرض ، والأفندى الذى يبحث عن مكتب والغنى الذى يبحث عن سلطة ، مولد وكل الناس فيه ، فلمـا نجـحت الثورة بدأ الخـلاف بين الثـائرين ! كـان فى الثـورة فريق يطالب بالثـورة المستـمـرة ، بتـوزيع الأرض ، بتـوزيع المال ، بتـوزيع الفـرص ، بتوزيع العدل .. وكـانت ثورة عبد الناصـر الافـريكية العربية هى المثل الأعلى لهؤلاء الثوار ، ولكن عندما بدأت الثورة فى بعض بلدان افريكيا تسير على هذا الطريق . إنشق عليـهـا الأغنيـاء فى البـداية ، ثم بعد فـتـرة خرج عليـهـا الأفندية المثقفون ! وهكذا اتلم المتعوس على خايب الرجا ! واتلم عليهم ايضـا ، كل أمعة ، وكل صـاحـب منفعة ! كل زعيم قـبيلة يريد أن تبقى الأوضـاع على مـا هـى عليـه . الناس تبـقى عـرايا ، والرقص على ودنه ، والجـوع على ودنه ، وكـرسى الرئاسة والقداسة للسيد الزعيم !

وكل تاجـر يشـتـــرى بقـرش ويبـيــع بعشـرة ، وعنـده من الفلـــوس مليـون ،

وعند الاخـــرين بـــرد وبلهارسيا وروماتيزم ينشر فى المفاصـــل وفى العظـــام !

وهكذا أصبحت افريكيا افريكتين . واحدة ثار فيها الجميع فلما نجحت الثورة ، وسكت الجميع !اكتفوا بطرد الحكام البيض ووضعوا مكانهم حكام سود ، واكتفوا بطرد الأغنيـاء البـيض ، وسلمـوا البنوك للاغنيـاء السـود ! ولان الحكام السـود والاغنياء السود أولاد أصول فقد واصلوا العلاقة القديمة بالسيد الابيض ، وهكذا أصبح السـود مندوبـين عن البـيض ..ليس الا ! والآن أصـبح كل شـيء على مـا هو عليه ، وكأن الثورة لم تقم وكأنها أيضا لم تكن ! وكـأنك يا بو زيد لا رحت ولا جيت:

ولكن هناك افريكيا ثانية جديدة ، الثورة فيها مستمرة والثورة فيـها على طول . وهذه الأخيرة تلقى متـاعب ومصـاعب ومؤامـرات ! ولكن الثورة فيـها تتـغلب دائمـا ، وتهزم أعداءها دائمـا ، وتنتصر على طول الطريق . لأن الثورة فيها ليست موضة وليست بدعة ، ولكنها مطلب الجمـاهير الحـافية ، والجمـاهير التـعبانة ، والجمـاهير التى نضجت على نار الفقر وعلى نار القهر !

واحد من دول إلتقيت به فى افريكى متحرر ، زعيم قبيلة كان يعيش طول العام فى العـاصمة ، ينام فى قصـر مفتخر ويأكل حمـام مفتخر ، ويقربع ويسكى ويلعب قمـار طول الليل . وبناته فى لندن ، وأبناؤه فى نيويورك ! ومرة كل عام يذهب الى القبيلة ، يرتدى الخرز ويرقص رقصة الحرب ، ويجمع الأتاوة ويعود ينفق منها على نفسه فى العاصمة وعلى عياله فيما وراء البحار ! الزعيم الافريقى الذى كان يجب أن يحتذى فى نظره هو كازافوبو ، الخـائن ابن الخـاينة رئيس جمـهورية الكونغو ليـوبولدفـيل .. وهو زعـلان وقـرفان لأن أفـريكيـا لهـا تقـاليـد توشك أن تندثر وهو زعلان لأنه رجل تقاليد ، والجهل من تقاليد افريكيا وينبغى الإبقاء عليه ، والفطرة من أهم مميـزات افـريكيـا ، وينبـغى المحـافظة عليـهـا . الراجل الزعيـم القـبـائلى السـابق عقليتـه سيـاحيـة ، فلو فرضنا وأصبـحت أفـريكيا بلدا أوروبيا كمـا يحـ الثـوار ، فمـا الذى يغرى الأوروبى على المجىء الينا ، وأى شىء يثير خيـاله لينفق عندنا الاسترلينى والدولار ؟ ! الراجل أذن ثائر ضد النظام الجديد ، ولكنه ليس من الثوار الخطرين ، لأنه هايف وجاهل وعقله مثل نعل الجزمة ! أنه يريد فى النهـ

ان يحيط افريكيا بسور هائل ، فلا اصلاح ولا تغيير ولا دياولو ، ويجلب السواح من أوروبا ، وكم هير يا خواجا ، وجبت ون سيجاريت، وثانك يو، وكان الله بالسر عليم! وما دام هو سوف يقبض وسوف يصرف، وسيكون اخر مزاج واخر انشكاع، فكل شيء فى افريقيا هادىء وعال والحمد لله !

ولكن أخطر اعداء النظام الجديد، هم السادة الأفندية الذين تلقوا قشور العلم فى جامعات لندن ! الأفندية الممصوصين الناشفين المعصعصين المريشين، وكلهم بنظارات طبية ولها شنابر! وهؤلاء ليسوا ضد الثورة ولكن ضد «أسلوب» الثورة إنهم يحلمون بحديقة مثل هايد بارك، ومجلس عموم يتكلم فيه الناس كما يشاءون، جرائد تقول ما تريد وهم فى النهاية ضد الوضع القديم ايضا ، ولكن موقفهم هذا جعلهم من أشد أنصار النظام القديم، ولو نجحوا فيما يريدون لعاد النظام القديم بكل هيئته وكامل عدته !

أفندى من دول ، مسلول مثل حالى، ضبش لا يكاد يرى أبعد من طرف جاكتته، يتكلم بسرعة مدفع رشاش ولعل عيبه الوحيد انه يتكلم ولا يسمع، ولا يريد أن يسمع لأنه لا يعطى أحدا فرصة الكلام !

أغرب شيء أن الافندى إياه يعشق لومومبا ويحبه ، لومومبا شهيد افريقيا، لومومبا مسيح عصره . ولكن لومومبا الطيب يا حضرة الأفندى، قتله اعداؤه لانه لم يقتلهم، لانه اتبع اسلوب سيادتك، عاملهم بالكلام فقاتلوه بطلقات الرصاص ! ومع ذلك فالافندى لا يريد أن يقتنع، إنه شاعر وليس ثائر وهو لا يريد دولة حرة، ولكنه يرغب فى قبر ويشبع عياط عليه !

ولكن .. لا خطر على الثورة الآن فى افريكيا ، انها أقوى من أعدائها . وجيل الثورة الجديد يتكون الآن، وعلى أكتافهم ستقوم افريكيا الجديدة ، وسيظل ثوار افريكيا يحملون السلاح لحماية الثورة حتى يتولى الجيل الجديد مسئولياته . واحد من هؤلاء ـ أبناء الثورة الافريكية ـ اقتحم علىّ الحجرة فى فندق الامباسادور بأكرا وجاء يناقشنى فى الوحدة الافريقية، انه يحلم بقطار سريع يقوم من القاهرة الى

كيبتاون فى جنوب أفريقيا، ثم يخترق بطن القارة الى كانو ولاجوس وأكرا، ثم يعبر الصحراء الكبرى الى المغرب والجزائر ، ثم يعود من جديد الى القاهرة ! ويحلم بعملة افريكية واحدة، على وجهها رسم للأهرام كأثر افريكى شهير وعلى ظهرها رسم للتمساح لانه حيوان أفريكى ولان افريكيا قارة البحيرات والأنهار ! ويحلم بجامعة افريكية للسياسة فى القاهرة، وجامعة افريكية للفنون فى اكرا، وجامعة افريكية للعلوم فى الجزائر، وجامعة افريكية للفلسفة فى الخرطوم ! ويحلم بجيش افريكى قوى يحرس شواطىء القارة الشمالية من أوروبا لانها العدو التقليدى، ويحرس شواطىء القارة الغربية من امريكا لانها العدو الجديد..

الولد الثائر العجيب لا يحلم ولا يتنبأ ، ولكنه يقرأ الغيب وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح . انه الآن فى العشرين من عمره، وستتحقق هذه الأحلام كلها قبل نهاية القرن العشرين وسيكون الثائر العجيب وقتئذ فى الخمسين وربما فى الخامسة والخمسين ! وفى خلال ثلاثين عاما ستصنع الأعاجيب ، لا تندهش أيها الأخ ، فمنذ عشر سنوات .. ربما أقل ، لم يكن فى افريكيا كلها سوى عبد الناصر. ولكن هذا الرجل وحده استطاع ان يصنع المعجزات . منذ عدة سنوات مثلا كان ملك المغرب فى المنفى ، وكان لومومبا موظفا فى مصلحة البريد ، وجومو كينياتا فى السجن ، وبن بيلا فى السجن ، ونيريرى وسيكوتورى ونكروما يكافحون بعضهم فى الخارج وبعضهم من خلف الأسوار . وكان المسافر من أكرا الى القاهرة لابد أن يمر أولا بلندن ، والمسافر من القاهرة الى كوناكرى لابد أن يمر أولا بباريس . وكان لابد من تأشيرة مرور انجليزية أو فرنسية أو بلجيكية أو اسبانية أو ايطالية لمن يريد الدخول فى افريكيا . ولم يكن لنا عملة ولكن التعامل بيننا كان يتم بفلوس الغير . ولم تكن لنا أعلام ولا أناشيد . وكان أغلبنا صياع فى لندن وفى باريس . وكانوا يضحكون علينا فيقولون لنا أننا مواطنون مثلهم لنا نفس الحقوق وعلينا نفس الواجبات ، وكنا نسافر الى الوطن الأم لندن ، فنكتشف هناك على ضوء لمبات النيون ان واجباتنا ثقيلة وحقوقنا مفيش . واننا احرار نستطيع ان نعمل فى أية مهنة تروق لنا من أول كناسين فى الشارع الى كمسارية فى الترماى !

مع الولد الثائر العجيب ، أفندى نص عمر فى سن حضرتنا كاتب وأديب له روايات وقصص . داير لف أوروبا كلها ، وعاش فى لندن أغلب حياته ، وذهب اليها أول الأمر ليتعلم ، والتعليم فى جامعات لندن بدون فلوس التعليم بالمجان، فطار عمنا فيكتور الى هناك . ولكنه اكتشف هناك ان التعليم صحيح ببلاش ولكن الحياة غالية ، ولكى تتعلم لابد وأن تكون من الأغنياء وفكر فيكتور ان يعمل ويتعلم . فاشتغل عامل منجم فى اسكتلندا . ولكن العمل فى المنجم شاق وصعب ولا يمكن ان يترك لك فرصة للتعليم .. فهجر المنجم واشتغل شيالا فى ميناء ليفربول ، وانكسر وسط عمنا فيكتور على رصيف الميناء . واضطر الى النوم فى حجرة باردة مع عشرين افريكيا مثله . يشربون الروم ويفتحون المطاوى قبل النوم ، ويسبون الدين والدنيا ، ويشخرون وينخرون ، ويستشهدون بدون سبب معلوم !

الغلبان المسكين فيكتور ذهب الى لندن يتعلم ويتأدب وينشر انتاجه على العالمين! ولكن ها هو يتدحرج مع الأيام الى عامل منجم وشيال فى الميناء وكناس فى الشارع ثم صايع يجلس طول النهار على المقهى وطول الليل يتسكع فى حى سوهو الشهير . ثم ها هو فى النهاية يصنع ما هو أسوأ . ان له جسما فحلا كتور ، وقوة باتعة ليس لها نظير ، وستات أوروبا يحبون الرجل الحمش القوى العنتيل ! وسيصبح عمنا فيكتور روميو بالأجر ، راجل وله عداد مثل التاكسى ، وارتضى عمنا فيكتور حياته الجديدة ولكن ست غنية معجبانية وقعت فى عمنا فيكتور فعرضت عليه ان يتحول من أجرة الى ملاكى ، مقابل خمسين جنيها استرلينياً كل شهر للفسحة والمزاج !

وعاش عم فيكتور سنوات مع الست ثم ركن فى الخط ، وسقط مريضا بالسل ، وفى مستشفى لندن عاش شهورا يعانى من المرض ومن الوحدة ومن الفقر انتظرته الست المعجبانية شهر وشهرين ثم اشترت راجل آخر ملاكى واختفت عن الأنظار !

الاديب القديم فى عمنا فيكتور عاد يتحرك فى داخله وهو على سرير المرض وجرثومة السل تأكل فى صدره ..

وبعد عام كامل خرج عمنا فيكتور من المستشفى برواية ستحدث هزة فى

افريكيا اسمها الغروب وعندما اشتعلت الثورة فى افريكيا حمل عزاله وجاء على عجل ليأخذ مكانه فى صف الثوار . وقبل أن يغارد لندن ذهب الى هايد بارك ووقف يخطب فى مجموعة من الانجليز السكرانين . وشتمهم ولعنهم وبصق عليهم ، وصاح واحد سكران من بين المستمعين :

- ولماذا جئت الى هنا ما دامت بلادنا لا تعجبك ؟

وقال عمنا فيكتور :

- لقد جئت الى هنا لانكم قلتم لى ان لندن هى وطنك الأم ..

وصاح الرجل الانجليزى السكران : وهى فعلا كذلك .. وقال عمنا فيكتور : نعم هى كذلك لكن اكتشفت للأسف انها أم زانية وتستحق القتل !

عمنا فيكتور الآن فى افريكيا يشارك فى بناء الثورة ، وهو محرر كبير فى مجلة كبيرة ، وروايته الجديدة صدرت هذا العام واسمها بعد الغروب ..

وبعد الغروب قصة افريكية حلوة بطلتها بنت اسمها ديانا ، سحبها رجل سمسار افريكى من الغابة لتعمل فى بيت خواجا على شاطىء المحيط . وكان الخواجا عجوز فى الستين من عمره ، وأرمل ماتت مراته منذ عهد طويل ، وله أبناء خمسة أربعة منهم رحلوا الى أوروبا ، والخامس ابله ومعتوه ويعيش مع الرجل العجوز . والرجل العجوز الفى ومبسوط وحاجة تمام ، وهو هاوى رماية وصياد طيور ماهر ، وتاجر له أكثر من فرع ، وسفرياته كثيرة وطويلة يقضيها متجولا للتفتيش على فروعه فى نيروبى وسالسبورى واليزابيث فيل !

وذات مساء انفرد الولد الأبله بالبنت الحلوة وفتك بها ، فلما أحتجت ألقى بها فى حجرة مظلمة وأغلق الباب عليها بالمفتاح . فلما عاد الرجل العجوز بعد أسبوع اطلق سراحها وطيب خاطرها ونهر ولده الأبله المعتوه . وبعد أيام دعاها الرجل العجوز الى حجرته وفتك بها هو الآخر ، ولم تجد بدا من الهرب من قصر الخواجا الى الشارع بدون هدف معلوم . ولكن المدينة كانت مثل قصر الخواجا ، كافرة وجاحدة وملعونة . وسرعان ما سقطت البنت الحلوة فى يد عصابة سحبتها الى

الميناء ، الى بيت أنيق ورشيق . وبعد أن كانت البنت للخواجا وولده المعتوه ، أصبحت للجميع . ولكن الأمور تغيرت تماما ، فبدلا من أن يتم الأمر بالعافية وبالمجان أصبح كل شيء يتم بالذوق وبالفلوس !

وذات مساء اكتشفت البنت ان الخواجا العجوز من زبائن البيت . وبعد ان كانت خادمته أصبحت عشيقته . غرق الرجل العجوز فى حبها للاذان ، ولانه كبير وصاحب نفوذ فقد أصبحت له وحده ، ومنحها هذا الامتياز فرصة للفسحة وفرصة للسفر ..

وذات سفرية التقت بشاب كنخلة جوز الهند قوى كالفيل ، عذب كماء النهر.الولد الافريكى العظيم كان واحد من الذين يعملون للثورة . ولم يكن الولد يعرف سر البنت ولم تكن البنت تعرف سره . وعندما اشتعلت الثورة اختفى الشاب اسابيع طويلة ، وعند اول لقاء مع البنت الحلوة اضطر ان يكشف سره لها . ولكن البنت احتفظت بسرها فلم تكشف عنه الغطاء !

وذات مساء كان الخواجا عندها .وكانت حفلة صاخبة .. ومع الخواجا كل أصدقائه وأحبابه ومدير البوليس ... ومحافظ بنك باركليز ، وشيخ تجار المدينة ، ودار الحديث حول الثورة والثوار .والخمرة حلوة تفك الألسنة المعقودة ، وتفتح الصدور المطوية على الأسرار ! ومدير البوليس رأسه خفيفة وعقله أخف . أخرج من جيبه ليستة طويلة بأسماء مائة شاب ستقتلهم السلطة اغتيالا فى الظلام . وارتاعت البنت الحلوة فقد كان اسم حبيبها فى كشف الموت إياه . وسكرت البنت وغنت ورقصت معهم .

وفى الفجر تسللت هاربة ومعها الكشف الى مقر الحبيب .لقد هربت البنت مرة أخرى ولكنها فى هذه المرة لم تهرب الى الشارع ، ولكن الى الثورة ، لقد وجدت نفسها أخيرا مع الثوار .

والحدوتة التى حكيتها لكم هى مجرد كروكى للرواية الأصلية . لاننى لو لخصت القصة بأمانة لاحتجت الى عشرة فصول من هذا الكتاب . وحال الأدب فى افريكيا

لا يسر أحدا لان عدد القراء قليل . وفى العالم الغربى مؤامرة صمت على الأدب الافريقى فلا اهتمام ولا احتفال وفى أوروبا يحتفلون بأدب الدولة الخنفسة سرائيل ولكن أدب قارة بأسرها لا يهم ! وتوزيع الصحف فى افريكيا وحش لأن طرق وحشة والمواصلات اوحش بكثير ! والفن الافريقى ممتاز ولكن لا أحد يسمع ه ولا أحد يسمع عنه ، لان الاتصال حتى بين الافريكان محدود ، فلا معارض ولا جوائز ... ولا يحزنون !

والدين فى افريكيا قشور لأن الدين أدخله مبشرون كذابون نصابون جاءوا على مراكب كانت مهمتها الاولى صيد العبيد ! ولذلك فالسيد المسيح والسيدة العذراء سود فى افريكيا لأن المبشرين النصابين خدعوهم فقالوا ان المسيح والسيدة عذراء من الزنوج !

والافريكى يذهب الى الكنيسة يوم الأحد لا ليصلى ولكن ليرقص ، والمبشرون ى الغابة يصنعون كل شىء ضد المسيح وضد الدين ! وهم وراء كل الثورات مضادة وهم منظمو كل حركات التمرد ضد النظام الجديد . وتحت ثوب مبشر الفضفاض ستجد منشورات وأسلحة ودولارات ومشاريع مؤامرات ، انقلابات ، وصفقات ليست لحساب الرب ، ولكن لحساب بنك انجلترا ومخابرات لأخ سام !

وأنا أقول « الأخ » سام لانه لم يعد عما لأحد ، فقد قلت قيمته وسيمته حتى صبح أخا .. ولا يزيد ! ..

والمسلم الافريقى تقرأ عليه السلام فيبكى بكاء الأرملة التى مات سبعها فى معدية على النيل ! ويسمع آية واحدة من القرآن فيظل يبكى طول الليل بدون أن فهم حرفا مما يقال ! ويصلى فى الطريق العام لانه لا يوجد مسجد واحد فى عض العواصم الكبرى .لم يسمح المستعمر الاوروبى الذى اغلق افريكيا الا لنوع حد من المبشرين . ومنع المسلمين من الحج ، ونشر حملة تخريف ضد العرب . صورهم فى صورة خطافة ونخاسة وتجار عبيد !

والخطة التى فشل فى تنفيذها السيد الأبيض زمان ، تحاول اسرائيل الآن

تنفيذها بأمواله ولحسابه ! وخطة الدولة الخنفسة اسرائيل ان تمزق أفريكيا الى افريكتين . افريكيا ما وراء الصحراء وافريكيا ما قبل الصحراء . افريكيا البيضاء وافريكيا السوداء . افريكيا الزنوج وافريكيا العرب . افريكيا العبيد ، وافريكيا تجار العبيد !!

وقد وجدت الدولة الخنفسة فى افريكيا بعض الآذان تسمع وبعض العقول تصدق . ولكنها كلها أذان وعقول عميلة . وهناك للأسف قوى وطنية فى افريكيا ولكنها مخدوعة ولكن هذا يستلزم منا جهدا أشد وعملا أكبر . وقد كانت الثورة المصرية هى أكبر دعاية للعرب فى افريكيا . وصورة عبد الناصر تحتل مكانها مع صور لومومبا وكينياتا ونيريرى ونكروما وسيكوتورى والمؤدب كيتا ..

وكانت الثورة الجزائرية شهادة أخرى لافريكيا العربية .. وتجربتنا الثورية محل دراسة كل ثوار أفريكيا وأحزابها التقدمية . وما من ثائر فى افريقيا إلا وله صلة بالقاهرة . وما من ثائر الا ومعه صورة يحتفظ بها فى أعز مكان ، صورة له مع عبد الناصر فى حديث عن الثورة والثوار .

ولقد بدأنا حديثنا عن الغنى والأغنياء ولكن الحديث على رأى زكى مبارك ذو شجون . والمال حلو يا جدعان ولكن توزيعه على الناس أحلى . والسلطة مغرية ولكن رد السلطة إلى الشعب اكثر عدلا . وأفريكيا الآن تغلى على نار من أجل توزيع الفلوس ، ورد النفوذ الى أهله الطبيعيين والشرعيين . وأصحاب النفوذ والفلوس التقيديون يحاربون الآن معركتهم الأخيرة ، معركة ضد المنطق وضد الطبيعة وضد الحياة نفسها ويا بخت من يقف مع الثورة فى افريكيا . ويا حسرة من يقف ضدها ، ستأكله الثورة وتهضمه وتبصقه نفاية على الطريق ..

□□□

يا حضرات الكويرة .. ويل لكم من أفريقيا

بعد العلوم والفنون والسياسة والكواسة والحواسة أكتب لكم من جديد عن فرع جديد فى افريكيا . ولكن قبل أن أبدأ لابد من شرح الكلمات الجديدة التى أرجوكم رجاء واحد شحط عاوز يتعين تمورجى فى القصر العينى ، أرجوكم ان تحفظوها وتتذكروها وتتعلموها وللعبد لله الأجر والثواب عند الله ..

أول هذه الكلمات هى الكواسة ، والكواسة من كويس . ويقال فلان رجل كويس .. أى رجل طيب أو رجل عبيط . ويقال هذا الشىء كويس كتير ، هذا اذا كان المتكلم خواجا مضروب فى دماغه نازل من مركب يتفرج على بور سعيد !

والكلمة الأخرى هى الحواسة من التحويس والتحويس بمعنى اللف والدوران ويقال فلان حواس بمعنى فلان لفاف أو دوار ، ولكن هذا لا ينطبق على حواس بتاع الفن الشعبى والحواسة أيضا فى بعض القواميس من الحواسة ويقال يا حوستى يانى، هذا اذا كان المتكلم سيدة من المدبح مات سبعها فى معركة بالسكاكين . ويقال يا حوستى يا خواتى ، هذا اذا كان المتكلم أم مات أبنها غرقا فى بحر شبين .

بعد هذه الديباجة يا سادة يا كرام أعود بكم الى الحديث عن افريكيا ، وفى فرع اعتقد انه يهم الكثيرين والكثيرات وهم حضرات الستات وحضرات البنات ، والتاء هنا هى تاء النسوة !

حديث اليوم يا سادة عن الرياضة فى افريكيا . ولن أخدعكم ولن أضحك عليكم، سأقول الحقيقة كاملة وأرجو أن يستفيد منها حضرات المشرفين على الرياضة فى بلادنا ، لأن افريقيا منا وعلينا ، ويوما ما سنلاعبها وتلاعبنا ، ويـ ويلنا إذا لم نأخذ حذرنا وأذا لم نستعد لها من الآن ! أول شىء افريكيا فى السباحة بره ، ومع إن افريقيا قارة الأنهار والبحيرات ، إلا أنها انهار وبحيرات قاتلة .. السابح فيها مفقود ، والواقف على شاطئها مفقود برضه ! التمسيح

هناك تتلعبط فى الماء كما السمك البلطى أو السمك الشبار- بلغة أهل بور سعيد - وعندما يتلعبط فى ترعة بلدنا ! وسيد قشطة نائم على وش المية كما قنطرة ترعة سبك كفر القرنين منوفية ! وفى السودان مثلا سمكة غلبانة ومسالمة اسمها العجلة وزنها مثل وزن الفيل ، ولو طبقت فى واحد سباح مثل أبو هيف ف .. يعوض الله! وفى انهار الكونغو أحناش يعنى ثعابين سامة وقرصتها وقرافة البساتين ! لذلك لا يسبح الناس هناك حتى الناس الذين على شواطىء المحيط لا يسبحون لان المحيط غدار تنزل فيه فتغطس ولكن لا تقب ولا تظهر لك جثة ! السباحة فى افريكيا ايدك منها والارض . وسنظل نحن الابطال فى العالم وابطال كل العالمين ، حتى ولو أكتشف العلماء سباحين فى كوكب الزهرة ! وفى الملاكمة كفانا الله شرها مستوانا كهواة مش ابطال ، ولكن كمحترفين يختلف الوضع ! فى نيجيريا ولد ملاكم محترف اسمه تيجر ، وتيجر يعنى النمر ، وهو نمر فعلا ومفترس صحيح ! قتل حتى الآن اكثر من خمسة ملاكمين لهم عضلات ولهم قبضات كالحديد ! وفى جامبيا أيضا ملاكم محترف اسمه دوجو، لو لكش واحد مثل حضرتنا فأنتم مدعوون جميعا لتشييع جنازتى اليوم التالى باذن الله ! ولو لكش واحد ملاكم فهو واقع على أرض الحلقة بلا كلام ! وليس اعتباطا ان كل ابطال الملاكمة فى العالم من الزنوج . بنيان الزنجى كبناء الهرم الأكبر . حاجة تسر العين والفؤاد وتشرح الصدر الحزين! عضلات ولا الكورة الانبوبية لو رآها ولد كوير مثل رضا لشاط فيها على الزواية الشمال على طول ! هذا اذا كان الزنجى رجل غلبان وفى حاله مثل حضرتنا ، فما بالك بالرجل الملاكم الذى يأكل عيشه بعرق العضلات وقبضات اليدين ! وفى الجرى حدث ولا حرج . فى افريكيا ناس ناشفين مسلوعين ، رجلهم ولا عيدان الملوخية ولكن صلبة ولا حديد المسلح والواحد منهم يجرى ولا الغزال . واكيبا بتاع الحبشة بهر العالم كله برجليه ، وميدالية ذهبية مضمونة لسيادته فى أى دورة وفى أى مهرجان . وفى تونس ايضا عدائون الله عليهم الواحد فيهم يجرى مشوار من هنا لبنها . وفى الكاميرون عداء مشهور اسمه اوجا .. ومعناها النار ، وهو يجرى الميل الواحد فى سرعة النفاثة الجديدة .. وفى كرة السلة العيال

طوال أطول من نخلة ، ولكن بلا فن على الأطلاق ، ولو اكتسبوا الفن فيا ميت حلاوة عليهم ، عندئذ سيكسبون حتى امريكا ، وحتى فرنسا ! ولكن كرة القدم هى التى أريد ان انذركم يا سادة يا كويرة وان ألفت نظركم ! فى غانا ولد حارس مرمى لا تدخل مرماه ولا طلقة مدفع . كما الحيطة يسد الجون فلا تمر منه كورة ولا تشرد ! ومع ذلك ضربناه فى دورة طوكيو خمسة أهداف ولا أدرى كيف حدث هذا ؟ ولذلك ضرب هو الآخر الشيخ طه ضربة تكسح بسببها عاما طويلا ولطم الأهلى على خديه بسببه ! الولد الغانى غلبان وكفران وحاله عدم ، ويحرس مرمى فريق الريبابليكا فى أكرا ، تفرجت عليه مرتين ، مرة هزم فريقه الفريق المنافس خمسة أهداف حتة واحدة . وأتغاظ العيال بتوع الفريق المنافس ونزلوا ضرب فى الحكم ثم فى لعيبة الريبابليكا ! فلما زاط الجمهور فى المدرجات ، انهال اللعيبة ضربا على المتفرجين ، وطار كل الناس ومحسوبكم أمامهم ، وعرفت لحظتها أن طريقة لعبنا تختلف عن طريقة اللعب هناك . فهنا الجمهور هو الذى يضرب اللعيب. وهى طريقة حلوة ما دمت انت من الجمهور . ولكن هناك اللعيبة هم الذين يضربون ، ولذلك يذهب بعض المتفرجين خلال المباريات بزى الكورة حتى اذا حصلت العاركة ووقعت الواقعة ، انضموا للفريق الضارب وهات يا عزق فى مخاليق الله . وشاهدت مباراة ثانية أشهد انها حلوة وانها طعمة ، ومستوى اللعب كما ماتش حامى بين الزمالك والاسماعيلى ، وفازت فرقة ريبابليكا بأربعة أهداف لمفيش أحرزها كلها الواد الانسيد الشمال ، هو ولد عفريت أزرق الناب عصير من رضا الاسماعيلى وجاكسا السودانى ، ويستطيع ان يلعب فى ريال مدريد ويكسب الشهرة والفلوس والذكر الحسن . واستاد أكرا عظيم التنسيق عظيم الاتساع . وبه ساعة اوتوماتيكية ، ولوحة بالكهرباء لتسجيل النتائج وميكروفون للارشاد والتنبيه ! والابواب محكمة لا تسمح بالمكاسب والتهليب ! تذاكر وأبواب دوارة كما أبواب جنينة الحيوانات . وعلى كل باب عسكرى واحد ليس على رأسه طاسة وليس فى يده شومة . وفى الداخل لا يوجد عساكر على الاطلاق ولا واحد شحط مشمرخ شايل قفة باستيليا لترويق الدماغ ، ولا جرادل كوكاكولا ، والتشجيع حامى ولكن فى حدود المعقول . والدرجة الاولى بنص دستة شلنات ، والمدرج خلف المرمى

بشلن واحد . والتحكيم على باب الله ، شفت واحد غلبان مهزوز ظل يتخبط فى أحكامه ، وفى النهاية ضربه العيال اللعيبة وضربه الرجال المتفرجين ! وللصحافة مكان لا ينحشر فيه واحد صايع ولا واحد ضايع ، والصحافة الرياضية قوية ومحترمة ومقروءة غاية الانقراء ! ولكن اللعيبة يا حسرة غلابه ولا لعيبة بنى سويف، فقراء ولا بتوع السواحل ، آخر فلس ولا لعيبة كفر الشيخ . الواد حارس المرمى العظيم يصلح لحراسة مرمى البرازيل ، تكلمت معه بعد المباراة وتكلم معى ايضا ، وصورته وشكرنى ، وطلبت منه الحضور الى فندق الامباسادور لنتبحبح فى الكلام ونتبغبغ فطلب من العبد لله خمسة شلن ثمن التاكسى وعلبة سجاير عشرين اذا أردت منه الحضور والكلام ! وتصور لو واحد صحفى أجنبى طلب من صالح سليم أو حمادة أمام أو شحتة الحضور الى فندق سميراميس ، فطلب واحد منهم ربع جنيه فكة ثمن علبة بلمونت وتاكسى من الدقى الى ميدان التحرير ؟ انا لا أتصور أن واحد من الكباتن بتوعنا يجرؤ على أن يطلب مثل هذا الطلب الغريب ! ولكن يبدو أن الواد حارس المرمى الغانى على الحديدة ، رغم انه موظف على الآلة الكاتبة فى شركة وله مرتب ٢ جنيه كل أسبوع .

وفى غانا فرقتان قوميتان والباقى على باب الله ، كوتوكو وريبابليكا ، ومنهما يتكون الفريق الغانى ومن ورائهما يسترزق الاتحاد الغانى وينفق على الجميع . ولكن لا رعاية ولا عناية باللاعبين . ولو عرف العيال بتوع مصر كم هم محظوظين وكم هم متدلعين وكم هم متبغددين لحمدوا الله وشكروا فضله وباسوا أيديهم بطنا وظهرا على النعمة والرزق الوفير ! واشهر لعيب مصرى فى غانا هو رأفت كابتن الزمالك ، وولد تانى وصفوة ولكنهم لم يتذكروا اسمه ، قالوا الولد القصير ابو رجلين مقوسة كما حديد النبلة ! ربما هو محمود حسن لعيب الترسانة الذى اختفى بدون سبب معلوم ! ولقد سمعت عن رأفت من ناس أغنياء مبسوطين فى فندق الامباسادور ، وسمعت عن رأفت من ناس مستوظفين فى الحكومة والشركات وسمعت عن رأفت من ناس ضباط فى الجيش ، وسمعت عن رأفت من ناس فقط فى مقاهى وبارات أكرا ، باختصار سمعت عن رأفت من الجميع ! ولكن غانا كمستوى لا تزيد عن مستوانا . هى فى نفس الخط البيانى معنا ومع المغرب وتونس والسودان . ساعات فى السما وأيام فى الحضيض . وهى تلعب بطريقتنا

وبأسلوبنا وشعارها هو الحكمة الابداية أن الله تعالى خالق الكون ورافع السموات بغير عمد ترونها ومدخل الكورة الى الشبكة .. واذا أراد فلا راد لارادته ولكن اذا كان الله لا يريد فلا شىء يشفع ولا شىء ينفع ، ولا شحتة ولا الشاذلى ولا ختنو بتاع ريال مدريد ! ولكن في افريكيا ناس تلعب بالكورة كما يلعب راجل ذئب ببنت سانجة ، كما يلعب واحد مليونير بالفلوس ! فى توجو فرقة تأكل منتخب مصر وهى نايمة . وفى جامبيا فرقة تأكل فريق البرازيل . وفى مالى فرقة لو اشتركت فى كأس العالم لأكلت كل الفرق .. حتى فريق البرازيل . الولد دى ستيفانو العجيب ابو رجل بلاتين قال مرة عن عيال مالى انه اذا كان المستقبل فى الكورة لأحد .. فهم الزنوج . وأقوى أمل للزنوج هم عيال مالى ! أنا نفسى تفرجت على فريق مالى واندهشت كيف يكون مثل هذا المستوى موجود ولم نسمع به ولم نتفرج عليه ولماذا نستجدى فريق البرازيل وفريق لشبونة مع أن فريق مالي أعظم وأقوى وعنده من فنون الكورة ما ليس موجودا فى أى فريق . الواد السنتر هاف بتاعهم ذكرنى بالساحر بوشكاش أيام عزه ! الواد يشوط الكورة نحو اليمين فتتجه الكورة نحو الشمال ! وقد يقول قائل .. وماله ، ان عندنا من هذا الصنف كثير . هشام يكن يشوط فى المرمى فيسدد فى المتفرجين ، وحسام حسن يشوط لزميله فتذهب الكورة للخصم ، وأنا اقول نعم هذا صحيح . عندنا الكورة كالبورصة يوم فى هبوط ويوم فى صعود .وكما البورصة ترتفع الاسعار وتنخفض بدون سبب معلوم ، كذلك فى الكورة ، يرتفع المستوى ويهبط دون سبب معلوم ، ولكن الفرق بين حسام حسن مثلا ولعيب مالى ، أن حسام حسن عندما يسدد فى الشبكة ، فهو صادق النية والعزم فى أن تذهب الكورة للمرمى ، ولكن على رأى سامى البارودى ، صح منى العزم والسيف نبا ! ولذلك تخيب الكرة وتتجه نحو المتفرجين . ولكن لعيب مالى يسدد نحو المدرجات فتذهب الى المرمى . والكورة فن له أصحاب وناس تتفنن وناس تتحنجل .. وحضرات اللعيبة بتوعنا من طبقة المتحنجين ! السبب ياحضرات الكويرة ان الجو الكروى فى افريكيا هو نفس الجو الكروى الذى كان موجودا أيام حسين حجازى ومختار التتش . جو هواية ولا شىء سواها ، واللعب هناك لوجه الرحمن الرحيم ! النوادى هناك غلبانه وكفرانه ولا

تستطيع ان تعطى اللعيب ثمن صندوق دخان ماتوسيان ودفتر بفرة !وعندما يفقد الانسان كل شيء وتبقى الهواية فقط فان المجال للاسترزاق أو للتشبيح فى الكورة مثل التى رقصت على السلم ، مثل التى فقعت بالصوت فى الغابة الاستوائية ! نطلع مرة رابع دورة طوكيو ، ونخرج من بره بره فى دورة برازافيل ونهزم النمسا مرة وننهزم من هولندا بلد السمن واللبن والحليب ! وهكذا أيضا يكسب الزمالك الدورى العام ويخرج من الكأس فى أول لقاء والسويس الرياضى ينافس على الكأس ويهبط من الدورى الممتاز وأنت لاتستطيع أن تحدد هل سيكسب فريق مصر أم سيخسر ، وأنت لكى تحدد النتيجة فلابد من الاستعانة بالجن والعفاريت الزرق ! ولكنك فى بلد مثل مالى مثلا ، فأنت تستطيع أن تحدد بالضبط ماذا سوف يحدث له فى أى مباراة ! فاذا كانت المباراة مثلا معنا أو مع غانا أو مع السودان . فمالى هى الكسبانة باذن الله . واذا كانت المباراة مع انجلترا مثلا ، فقد يتعادل الفريق وقد يفوز . واذا كان اللعب مع البرازيل ، فهنا لا تستطيع أن تتنبأ ، فقد يتعادل وقد ينهزم وقد يفوز ! ذلك أن فريق مالى له مستوى ، وله مستوى لأن له خطة ولكن يبدو أنّ مالى ليست هى البلد الوحيد الخطير فى الكورة . أنا التقيت برجل فى لاجوس مندوب شركة تشترى جوز الهند من افريكيا ، مهنته تحتم عليه المرور عبر أفريكيا وهو نفسه زمان كان لعيب كورة فى بلده . الرجل رغم سنه تبدو عليه الصحة والقوة التمام ! وهو كله فى حجم الضظوى وصوته يشبه تماما صوت أسد ! وهو مغرم صبابا بالكورة وعاشق لها ولا عشق جميل للست بثينة ! وهو من أجل مباراة يترك صفقة ويهرب، ومن أجل الكورة يستقيل ! الرجل الخبير اللعيب القديم قال لى فى افريكيا فريق كورة أقوى ألف مرة من فريق مالى . فريق أنجولا مثلا أقوى بكثير من فريق مالى ، ولكن غير مسموح له بالخروج ، وغير مسموح لفرق افريكيا بالدخول هناك . وكباتن أنجولا يلعبون فى نوادي لشبونة وبملاليم . أزيبيو ملك اللعبة فى البرتغال ليس أحسن لاعب فى موزمبيق ولكن هناك لعيبة أحسن منه ألف مرة ، ولكن بعضهم هارب من وجه السلطة والبعض يلعب تحت القهر

والاضطهاد ! وفى بلد اسمها بلمفنتين فى جنوب افريكيا شاهد الرجل الخبير مباراة ليس أحلى منها ولا أطعم . الكورة تتدحرج دائما على الارض والمباصات مرسومة ، وهات وخذ بين الجميع ، وكلهم وقت اللزوم أعظم دفاع ، ووقت اللزوم أعظم هجوم ! مباراة لو انتقلت للعالم لانبهر الناس وسجدوا لعيال بلمفنتين مفيش كلام ! ولكن لانهم سود يا عينى محظور عليهم الشهرة وممنوع عليهم الفلوس . وللسود دورى خاص واتحاد خاص أيضا . ولكن دورى البيض هو المشهور وهو الكسبان، واتحاد البيض هو الذى يسافر للخارج ويجلب ما يشاء من الفرق بالفلوس ! حتى فى الكورة فيه سود وبيض يا جدعان . ولد من دول أسود ولعيب ، ويلعب فى بلد الجواهر والعواهر جوهانزبرج ، ولد محاور كما بوشكاش ، خطاف أهداف كما الضظوى ، شويط كما الشاذلى سريع كما أبو السريع ، الولد أياه أصبح له شهرة فى جنوب افريكيا ولا شهرة غاندى فى الهند ، أصبحت صوره توزع على المتفرجين سرا كما قطع الحشيش على أصحاب المزاج . وخافت حكومة جنوب افريكيا من الفتنة فاعتقلت الولد الساحر وقذفت به الى الصحراء ، لانه ليس مسموحا لاحد من السود أن يكون مشهورا أو محبوبا من الجميع . وفى الكونغو ليوبولدفيل فرقة كورة كان يمكن أن تكون أشهر فرقة فى افريكيا لو كتب للشهيد الحبيب لومومبا أن يعيش لان كل العيال العظام فى الفرقة خطفتهم فرق بلجيكا ، وعندما حصلت الكونغو على الاستقلال عاد العيال الى بلادهم ، فلما اغتيل لومومبا وتشقلبت الاحوال ، عاد العيال من جديد الى فرق البلجيك !

والكورة هى جنون الناس فى افريكيا كما هى جنون الناس فى كل مكان ، ولكنها فى افريكيا لها دلالة ولها معنى آخر عظيم . الكورة فى افريكيا لم تكن لعبة فقط ، ولكنها كانت لعبة وسياسة ، وكانت جبهة من جبهات المقاومة . وكانت سلاحا حادا أكيد المفعول ضد السادة البيض ، كانت فى البداية وقف على السادة البيض . وكان مسموحا للعيال السود فى أغلب بلاد افريكيا باللعب فى فرق البيض ولكن كانت الحياة فى الملعب تسير على نفس النظام الذى يجرى

فى الحياة ، الواد الأسود يلعب ويحاور ويسجل والواد الأبيض يشتهر ويقبض . فاذا طالب الأسود بحقوق ضربوه وكسروه وركنوه فى الظلام ! فلما اشتد الارهاب فى النوادى اشتدت الرغبة فى تكوين نوادٍ مستقلة للناس السود . وأول نادى كورة قام فى نياسالاند ودفع السود ثمنه عشرة آلاف من الأرواح ، فعندما بدأ تكوين النادى رفضت السلطات إقامته، وفى الحال تكونت لجنة للدعوة لإنشاء النادى ولكن السلطة أعتقلت أعضاء اللجنة وزجت بهم فى السجون، وفى اليوم التالى أنفجرت المظاهرات فى نياسالاند وتدخلت السلطة بالسلاح وسقط عشرة آلاف قتيل فى يوم الأحد الحزين.. وهو يوم مشهور وله تاريخ فى نياسالاند! وعندما تكونت نوادى السود كان محظورا على البيض دخولها. ولم يكن لدى البيض أدنى رغبة فى الدخول ولكنها حركة من جانب السود للرد على قرار منع السود من دخول نواد البيض ! وخلف جدران نوادى الكورة تمت أخطر الاجتماعات ونظمت أعنف المظاهرات، وفى بعض البلاد تكونت أول خلايا النضال المسلح فى ملاعب الكورة. كانت الخلايا تحضر المباريات مع الالوف الكثيرة، وأثناء الزيطة والزمبليطة تجتمع الخلايا وتتلقى التلعيمات وتتسلم السلاح وتخرج من ملعب الكورة للعمل! ورغم أن السلطة البيضاء أكتشفت الأمر إلا أنها لم تستطع أن توقف مباريات الكورة، أو تمنع الناس من الدخول، لأن وقف المباريات أو منع الناس معناه ببساطة ثورة شاملة فى أنحاء البلاد!

أغرب شىء أن جميع الكويرة فى أنحاء العالم لهم نفس الملامح ولهم نفس التفكير . واحد كوير عظيم التقيت به فى أكرا، لعيب كان وردة زمانه ومكانه منذ عشرة أعوام لا تزيد. الواد اسمه الأسد وقد كان أسدا بالفعل فى الملعب. رأسه كانت كالصخرة، وقدمه كانت قطعة من الماس، ثم اعتزل الملعب فجأة وراح يسرح طول الليل على شاطىء أكرا يشرب الطافية ومية النار ويترنح ويتدخل فى أى نقاش، ويقدم نفسه لكل من يلقاه. وأصفا نفسه بالأسد وبالكابتن وبطل الأبطال! مسكين الأسد الذى تحول إلى لبؤة، يريد أن يفرض اسمه على الناس بالعافية. والأسد معذور لان اسمه كان يصنع مانشتات الصحف، وصورته كانت تحتل أبرز

مكان . وكانت له أحاديث فى الإذاعة، وكان له معجبون بالألوف، وكانت سهراته مضمونة ومشاريبه بالمجان، والكوير السابق، حاقد وناقم على كل الناس، ليس فى أفريكيا الأن كورة، الكورة كانت زمان، أنا كنت أخطف الكورة من بين أقدام أى دفاع، وأنحرف ناحية اليمين وناحية اليسار وأشوط فى الزاوية فتسكن الكورة الشباك. أنا قتلت مرة حارس مرمى أبيض كان أطرى من عود الخص الدبلان سددت قنبلة فى بطنه فاخترقت أحشاءه ومات فى الحال رحمه الله!! أنا غربلت مرة كل فريق الواندرز الإنجليزى وأحرزت هدفا ببطن قدمى ثم لفيت الملعب كله أتلقى تهانى المعجبين والمعجابات! والكورة عند الأخ دينجاهى مركز الكون ومحور الحياة وهى البداية والنهاية.. وأى لعيب فى العالم الآن صفر على الشمال ولا يساوى ثمرة جوز هند فاسدة. ودستيفانو أنا أتفرجت عليه ولم أنبسط. وبوشكاش نص لعيب لانه يجيد اللعب بقدم واحدة، وبيليه لعيب طري وخرافه ولو جاء فى عصرى لمات جوعا فى الشوارع، وهذه الأنا هى التى تتحكم فى سلوكه وتحكم تصرفاته حتى الآن.

واحد كوير تانى مشهور ومعجبانى وضاربه السلك، آخر فلس وآخر نفخة، ولا تركى عثمانى معه رسالة من الباب العالى إلى الناس الواطيين فى المستعمرات. الواد قاعد على الكرسى مفشوخ ولا تاجر قطن كسبان وقاعد مجعبز فى كازينو صفية حلمى! الواد عقله منفس كوابور جاز بريموس خسران ، ومخه كموتور عربية العبد لله، الولد أصله صايع خرج من المدرسة وعنده من السن أربعتاشر، ورمح فى حوارى أكرا يلعب الكورة كما القشاط! وعندما أكتشفوه صعد نجمه بسرعة وأصبح له معجبون ومسلفون نسبة إلى السلف عقبال السامعين. وهو جالس على الكرسى ورجليه مبحطرة وكل رجل فى ناحية، وعلى اليمين بنت أشهد أنها كالشيكولاتة نستلة عيونها حلوين كما عيون سعاد حسنى، شعرها أكرت ومبروم كما البلح الامهات، وعضلاتها ناضجة وصاحية كما عضلات الأخت فيزة أحمد، وصوتها كما صوت كمنجة فى يد عازف غشيم! وعلى الشمال سيدة محمل، دمها خفيف كستنا مارى منيب شعرها مصبوغ بالحنة، وعشان لا يغضب

بتوع النحوى أقول مصبوغ بالحناء. فقد لونه القديم ولونه الجديد كما لون شعر الست الهام شاهين، وراح الولد يشرب كما عطشان ياصبايا ودلوه على السبيل! معه فلوس وعليه صحة ومشهور أشهر من مدينة أكرا، وجاهل أزلى، يستطيع بعد الاعتزال أن يصبح متعهد جهل ويستطيع توريده فى سيارات لورى لمن يريد! سألته عن اللاعب الغلبان دينجا ففشخ بقه بابتسامة رثاء.. وقال لاعب فاشل لو لعب معى لاعتزل من أول يوم!! أنا أقول الحق، رأيت فى الولد الجديد دينجا آخر.. ويوم قادم قريب سيعتزل هو الآخر، وسيفر من حوله المعجبون. وسيحكى عندئذ حكايات هايفة وتافهة ولن يجد من يسمعها بعكس الرجل الغلبان دينجا لانه يتمتع رغم كل شيء بدم خفيف!

المهم هنا اللياقة والصحة والتفكير السليم.. ونحن نتناقل هنا الكورة بالساعة، لان الكورة هنا كيف، والكيف مناقله ، واللعب حظوظ ومزاجات ، ولعبة حلوة من رضا أبرك من عشرة أهداف، وتطويحة حلوة من حمادة أمام ونخسر المباراة، ولعبة ع الطاير من بتوع العجوز ولو دخلت حتى الكورة فى مرماه، حلنجية العيال بتوعنا وحواة وشاطرين وعيونهم مفتوحة وأولاد بلد بصحيح ولكنهم لا يصلحون للكورة ولا تصلح الكورة لهم.. وأنا أتمنى على الله ولا يكتر على الله أن تقام دورة أفريكيا مرة فى بلدنا لنتفرج على الكرة الحلوة ونتعلم منها، أو نتفرج ونتحسر اذا كام التعليم قد أصبح بالنسبة لكباتن مصر العظام من باب المستحيل! وستدركون عندئذ أننا أسرفنا فى خلع الألقاب على السادة اللعيبة، وأن الماسترو مثلا لا يصلح إلا ماسترو لفرقة حسب الله، وأن النفاثة ليست إلا قطار دلتا قديم، وأن الثعلب ليس إلا بطة بلدى مريضة بالهرش وأن الأهلى الذى هو مدرسة الكورة بالنسبة لافريكيا ليس إلا مدرسة لروضة الأطفال والعيال الصغيرين.. ولكن أشهد أن التحكيم عندنا رغم سوءاته وعوراته أفضل بكثير وأعظم بكثير من التحكيم فى أفريكيا.. ومهما قلت ومهما عدت فلن نجد أعظم من على قنديل ومحمد حسام ولن نجد فى أفريكيا واحدا فى مستوى صبحى نصير حكم المحلة الشهير!

ويا حضرة الكويرة، وقعة حضراتكم سودة أسود من قدرة الفول المدمس، ويوم أزرق من فانلة الترسانة، يوم يلتقى الجمعان جمعنا وجمع أفريكيا ، يوم لاتشفع فيه فتاكة ولا حركات ، ويكون ، الفوز يومئذ للعيال التى تلعب الكورة بالطول وعلى طول وليس من أجل إضحاك.. وإدهاش الجماهير..

ويا حضرات القراء الله يعطيكم العمر الطويل حتى تشاهدوا الكورة فى أفريكيا، والله يمد فى أعماركم وأعمارنا .

وداعـا بهجتى .. عمتى .. أفريقيا

ها أنذا خارج من أفريكيا وقلبى ينز ويفز من هول الفراق . وحكاية ينز ويفز هذه جاء ذكرها فى ملحمة أدهم الشرقاوى، وأول رصاصة جت فى بزه الشمال قال يابز لا تنز من ضربة الأندال ..

وتانى رصاصة جت فى بزه اليمين قال يابز لا تبز من ضربة الخاينين! ..

ها هى أفريكيا العظيمة أفارقها ولكن إلى حين.. أعدكم يا حضرات القراء ويا حضرات القراءات أننى سأعود إلى أفريكيا يوما.. سأعود لاتسلطح على ظهرى بجوارى خزان جبل الأولياء، وأتمرغ فى تراب جوبا، وأشم رائحة الغابة فى مدينة واو، وأشم رائحة البارود فى ستانلى فيل، وألقى بنفسى فى النهر مع التماسيح على شاطئ الكونغو برازفيل.. وأتمشى أفرنجى فى دار السلام، وأتسنكح كما غراب نوحى فى مزارع الموز فى الكميرون.. وأنا قبل رحلتى الأخيرة إلى الشاطئ الغربى لأفريكيا قدر لى أن أتسنكح فى ربوع أفريكيا أكثر من مرة.. وقضيت عشرة أيام فى طنجة عندما كانت دولية، عساكرها إنجليز وأسبان وطليان وفرنسيون وبرتغاليون وحاكمها خواجا وشعبها عرب شجعان جدعان أبناء طارق بن زياد الله يرحم شبابه! ..

ودخلت حوارى القصبة الملتوية، وتفسحت على شاطئ المضيق مع هندى غلبان مثل حالى نرمش بعيوننا نحو الشاطئ الأسبانى وقمة جبل طارق ترنو الينا!.

وفى طنجة الدولية زمان كان كل شئ جائزاً وكل شئ ممكناً وكل شئ مقبولاً ، ولد جريجى صايع إعترض طريقنا ورطن معنا بالهندى.. وبالهندى رحنا نحن أيضا نرطن معاه، وسحبنا إلى حى القصبة وانسحبنا نحن وراءه، كأننا جاموس فى طريقه إلى المدبح، كأننا خرفان والولد الجريجى معه علو برسيم أخضر مرعرع!

ودخلنا بيت.. الله على جماله، نقوش ولا النقوش الموجودة فى قصر النيل، وبلاط موزايكو لم تره عينى إلا فى سراية عابدين ورخام مرمر لا لحم ست بيضه من بقايا الأسر التركية المجنونة أفندم طمام! ..

وداخل القصر باحة ولا جنة رضوان، فسقية وفى الوسط نافورة، ومع النافورة ورد بلدى مفتح ع الغصون يالاللى! وجماعة أمريكان عواجيز مهابيل مساطيل آخر انسجام، وامرأة تعبانة آخر تعب، وحمار حصاوى مدرب وفرجة وفضيحة وهتيكة.. والاجر دولار!! ..

هكذا كانت طنجة وهى دولية، حشيش تلاقى، أفيون عيدان تلاقى، سلاح تلاقى.. تهريب ممكن، تعمل عصابة كما عصابة توميكس الجبار ممكن، تفتح بنك وهمى يجوز.. تدخل تخرج لا أحد يسألك ولا أحد يسأل فيك! ولكن طنجة الدولية كانت لها سوءة وكان لها ميزات..

أنت فى طنجة تحس أنك فى عالم باسرة. أنت فى طنجة تحس أنك فى مدينة مستقلة لها قوانين ولها دستور خاص، اذا كان الانسان فى مجتمع سليم يشعر أنه مربوط بدوبارة مع الآخرين ومع الأشياء ومع القوانين فأنت فى طنجة تحس أنك مفكوك الدوبارة وأنه لاشىء معك ولا شىء أنت معه!! ..

اذا صادفك رجل فأنت تستطيع أن تمر به وتستطيع أن تمر عليه! .. وأنت تقف لاشارة المرور أو تقف ضدها، وأنت مع القانون أو أنت عليه، كل رجل حر وكل حر مسئول عن حريته، ولكن حرية الآخرين فى طنجة لا تقف عند حدود حريتى. ولكنها تمتد وتقضى على حريتى! ..

كل راجل فى طنجة كان حرا يقتلنى ويتركنى أو يقتلنى ويشرب من دمى!. ولقد رأيت فى أفريكيا غابات كثيرة ولكن أغرب وأعجب غابة كانت غابة طنجة الدولية! ورغم أن طنجة كانت خالية من الأشجار ومن الوحوش.. الا أن الناس فيها كانوا أخطر وأكسر من الكاسرة! وفى تلك الأيام الخالية كانت طنجة تنقسم إلى ٣٠٠ ألف طنجاوى! كل طنجاوى منهم كان مدينة مستقلة لها علم ترفعه ونشيد تعزفــه !..

ولقد إلتقيت فى فندق المنزه بطنجة على الشاطىء المضيق بشاب طليانى فى الأربعين من عمره كان جنديا فى جيش موسولينى الذى لايهزم ولا يستسلم ولا يتقهقر والذى يجب وينبغى أن ينتصر!.. ولكن فى أول لقاء للجيش الطليانى مع دولة نص نص هى اليونان تراجع الجيش الطليانى إلى الخلف.. وهو لم يتراجع طبقا لخطة موضوعة ، ولكنه تراجع والسلام، وتحول الجيش الطليانى الذى لا يتقهقر إلى ٢٥٠ ألف جندى متقهقر كل منهم يود من أعماق أعماقه أن يعقد مع جيش اليونان صلحا منفردا!..

وقضى الولد إمبرتو بقية أيامه فى معسكر للأسرى فى التل الكبير، وتعلم العربية وأتقنها وقبل نهاية الحرب نجح فى الهرب.. وبعد الحرب لم يعد لايطاليا ولم يستقر فى مصر.. رحل إلى ليبيا وعاش فى طرابلس، واشتغل فى شركة طليانية تصطاد سمك التونا من البحر وتبيعه لشعب ليبيا بالعملة الصعبة، وبعد سنوات طويلة لم ترق له حياة البحر فهجره إلى الشاطىء، ثم ما لبث أن مل حياة الشاطىء أيضا فهجره إلى الجزائر يجرب حظه هناك..

وفى الجزائر العاصمة استطاع أن يفتح مكتبا للتأمين وينصب على عدد من الناس.. وبدد الولد أمبرتو كل الأموال التى استطاع أن يهبرها من مخاليق الله واحتار دليله فوقف عاجزا لا يستطيع أن يتصرف!..وذات مساء جاءه الفرج من حيث لا يحسب ولا يحتسب! طرق عليه الباب واحد خواجا كما جذع شجرة جميز فى الصالحية!

وقدم الرجل الخواجا نفسه، مندوب جمعية الوجود الفرنسى، وفى أشد الحاجة إلى خواجا يجيد العربية ويجيد إطلاق الرصاص.. وسيسافر فى مهمة عاجلة إلى طنجة، وتناول الولد أمبرتو مسدس ومحفظة عامرة بالأموال وطار إلى طنجة، الولد أمبرتو الغلبان كان معه أوامر باطلاق النار على فلان وفلان وفلان !.. ولكن أمبرتو الذى له مظهر قاتل ونفسية فنان والذى كان يوما ما جنديا فى جيش موسولينى الذى لا يتقهقر وعاش حياته فى طنجة ومعه فلوس، نام فى ملهى الدونا على شاطىء المضيق.

يشـــرب ويحـب وينفـق عن سعة من محفظة الوجود الفرنسى التى كانت تراقبه ..

فلما بدد كل أموالها طالبته بالتنفيذ فرفض.. فراحت تتبعه، ويوما بعد يوم أصبح أمبرتو أسيرا مرة أخرى ولكن فى ملهى الدونا! لم يعد يغادر الملهى خوفا من أن تنطلق فى ظهره رصاصة فتقضى عليه فى ظلام طنجة الحالك! فلما يئست جمعية الوجود الفرنسى من خروجه من الملهى سعت إليه!..

أرسلوا له ذات يوم طرداً جذاباً وأنيقاً وفتحته البنت روزانا، وهى بنت أسبانية ككوز الذرة المشوى، لذيذة وسخنة ولها رائحة جميلة كانت لحظها المهبب تحب أمبرتو الطليانى وتموت فى دباديبه، وعلى روزانا الجميلة أنفق الواد أمبرتو كل نقوده ونقود الوجود الفرنسى.. فلما تأزمت به الأحوال وحاصرته الجمعية لجأ إلى روزانا وكانت شهمة وبنت ناس طيبين فأوته وأكرمته وأنفقت عليه من حر مالها، وحر مال المغفلين ورواد ملهى الدونا!..

فلما وصل الطرد إلى الملهى فتحته روزانا فانفجر فيها وقضى عليها، وأصبح أمبرتو وحيدا ومفلسا ومحطما كبقايا مركب صيد أنكسرت وسط المحيط وحمل التيار ما بقى منها وراحت الأمواج العاتية تقذف بها على الساحل .. عندما التقينا كانت ليلة صيف حلوة، والقمر ملعلع فى العلالى، والشجر سكران يهتز، والموج نائم يتبلطح، وأمبرتو شارب لكيعانه، ليس معه فلوس، ولكن معه مسدس، ومسدس عمران وجاهز، وهو قد مل الانتظار، ويريد أن تأتى إليه جمعية الوجود الفرنسى، فتقضى عليه أو يقضى عليها.. المهم عنده أن يحدث أى شىء، هذا خير من الانتظار القاتل!..

أمبرتو المسكين أنا لا أعرف أين هو الآن، كان آخر لقاء بيننا ذات أمسية حارة فى صيف ١٩٥٦، لعله لا يزال فى طنجة العربية الآن.. لعله عاد إلى الجزائر، لعله أبحر بعيدا إلى شيلى أو البرازيل، فقد كان حلم حياته.. أن يعبر المحيط إلى أمريكا الجنوبية.. ليعيش بعيدا عن الناس فى هدوء!..

ولكن تطوان الجميلة هى التى دخلت قلبى.. وفى العالم أماكن كثيرة يراها الانسان فيشهق من شدة اللذة، ويتمنى على الله أن يعيش فيها.. ولكن إحساسى

مع تطوان كان يختلف، عندما رأيتها أول مرة شهقت من شدة الانبساط وتمنيت على الله أن أموت فيها .. بلد ولا الاحلام، والناس عصير طيب من العرب والاسبان، وتلال تطوان العشرة تطل عليك فى النهار خضراء كما فرع لبلاب مرعرع وتطبق عليك فى الليل.. أنوارها تتلألأ كما شياطين حمر فى ليلة صيف والشوارع تحتية كما الأنفاق ومرتفعة كما الكوبرى!..

ومروج تطوان زاهرة وعامرة.. أشجار الليمون تعبق فى الفضاء الواسع. وحقول العنب والدلاع تترامى إلى الأفق البعيد... والبحر الأبيض المتوسط يلطم شاطىء تطوان فى حنان ولا حنان العاشق المسكين! نظيفة تطوان أنظف من جيب المفلس، رشيقة ولا فرع شجرة توت. دسمه ولا فطيرة من فطير المنوفية المشلتت!.. وتركت تطوان وتركت فيها قلبى، مع بنت أسبانية من الخثيرث وهو النطق الاسبانى للجزيرة، والخثيرث أو الجزيرة بلد على الشاطىء الأوروبى المواجه لطنجة.. عبرتها جيوش طارق بن زياد أول فارس عربى جدع عبر البحر إلى أوروبا، وعبرتها أيضا جيوش آخر ملوك قشتاله العرب، مهزومين موكوسين يبكون كما النساء على ملك لم يستطيعوا أن يحافظوا عليه كما الرجال... والبنت ميراندا عصير هؤلاء الرجال جميعا..

عربية المزاج والشكل أيضا، أسبانية الكلام والاشارة! حلوة كما البسكويت، ناعمة كما كعك العيد، وتلاغينا وتصاحبنا وعزمتنى وأكلت معها البصيطلة وشربت معها الشاى! وقضيت معها أسبوعا على شاطىء كأننى ممثل فى رواية من إنتاج هوليود، ثم طرت فجأة من تطوان إلى بلد آخر...

تسألنى لماذا انقطع حبل الود بينك وبين ميراندا، فرغم بعد المسافة فما أسهل الخطابات.. ورغم بعد الشقة فقد سافرت أنا بعد ذلك أكثر من مرة إلى المغرب وإلى تطوان نفسها بالذات!..

أقول ذلك بصدق وبدون خداع أنا لم أكتب إليها ولم أذهب لها لأننى كذاب. زعمت لها فى أول لقاء أننى تاجر وأننى سأقيم زمنا طويلا فى تطوان، لماذا كذبت على ميراندا الحلوة لست أدرى، المهم اننى كذبت عليها والسلام !..

وإذا كان الانسان حيوانا ناطقا فى الكتب... فعند العبد لله الانسان حيوان كاذب! فليس فى الحيوانات أسد يكذب على غزالة.. وليس فى الغابة فيل يكذب على جاموسة.. الكذاب هو الانسان، أحيانا لسبب واحيانا بدون أسباب! وأنا كذبت على البنت ميراندا بدون أسباب، والله يمسيها الخير اذا كانت حية تسعى، والله يرحم شبابها اذا كانت ترقد الآن فى قبر على قمة تل من تلال تطوان!..

والجزائر ما أحلاها وما أغناها، الشوارع بعضها فوق بعض كأنها طوابق، والمدينة كلها واقفة مرتفعة شامخة كأنها عمارة ضخمة لسكنى الناس والمحلات والعربيات والترمايات! ولكن أجمل ما فى الجزائر ميدان الشهداء وهو يشبه تماما ميدان العتبة نصف قرن، وحى القصبة العربى يختلف عن بقية الجزائر لأنه شوارع بعضها تحت بعض... القصبة الجميلة تثبت أن العربى له مزاج واحد ونفسية واحدة... وأن الفوارق والحدود حدثت بفعل فاعل أثيم!

نفس الشكل ستجده فى تونس وفى دمشق وفى القدس وفى اليمن وفى بيروت، والناس فى القصبة كأنهم فى عيد دائم، الملابس نظيفة والهيئة مظبوطة وكل شئ عال وتمام وآخر مزاج، والشيشة بين الاصابع، والشاى على الموائد، والستات تخطر فى الجلابية كما الغزال...

وفى تونس أنا لفيت ومريت من صفاقس حتى الكاف ومن بنزرت حتى القيروان... أشجار النخيل كما الرفييرا وجداول المياه كما انهار الجنة، طبيعية متجبرة ومعبرة وهى التى انضجت شاعرا عظيما اسمه أبو القاسم الشابى... مات يا حول الله فى ربيع العمر، لأن الجنة كانت للفرنسيين والنار كانت لأهل تونس، وفى القيروان مطرب مصرى عجوز اسمه الشيخ أمين، العواجيز قوى لابد سيتذكروه...

كان هنا أيام سيد درويش وداود حسنى ونجيب الريحانى، وكان صاحب صوت ولا صوت الشيخ مصطفى اسماعيل... وكانت عليه ليالى ولا ليالى طلب، وكان فى حنجرته بحة ولا بحة محمد طه!..

وسهرت مع الشيخ أمين فى القيروان يسألنى عن الحلوجى بتاع الطعمية

والكاشف بتاع لحمة الراس، والحاج صبحى الحلوانى الذى كان فى شارع عبدالعزيز.. مسكين كل الذين كان يعرفهم ماتوا الى رحمة العزيز الحكيم. ولا يذكر اسما الا ومعه عبارة كأنها أكلشيه «الله يرحمه»!.. ونجيب الريحانى الله يرحمه.. وسيد درويش الله يرحمه، وبيرم التونسى الله يرحمه.. وعلى الكسار الله يرحمه.. وفوزى منيب الله يرحمه.. وحسين حجازى الله يرحمه.. وعبدالفتاح القصرى الله يرحمه، وشر فنطح الله يرحمه، وحسن كامل الله يرحمه.. الخلاصة.. الله يرحم الجميع...

آسف وزعلان الشيخ أمين لان جميع المعارف والاصدقاء يرحمهم الله. غلطان عمنا الشيخ أمين لأنه أسعد حالا من كثيرين.. هو فقد الاصدقاء بالموت، وغيره يفقدون الاصدقاء وهم على قيد الحياة.. وهذا ألعن! معه من أيام الذكريات جنيه ذهب مجيدى عليه صورة السلطان عبد المجيد، وعلبة نشوق ذهب من القائد الألمانى روميل!

ولقد تركت تونس والشيخ أمين ومررت مرور الكرام على ليبيا، خطف لهف فى طرابلس... وخطف لهف أيضا فى بنى غازى، لا أذكر فى طرابلس شيئا الآن الا فندق المهيرى على شاطئ البحر، والقاعدة الامريكية الضخمة، ورؤوس الصواريخ الموجهة تطل على الناس كما غربان البين!..

ولكن البلد الذى لا زلت أحن اليه هو الخرطوم، ولقعدة البلدى فى أم درمان على رصيف قبة ضريح الخليفة، والصحاب والأصدقاء عبد الحميد عبد الرحمن وأحمد عبد الرحمن وعلى كابو وسبت دودو حارس مرمى السودان العظيم، وتلك الليلة التى نسيت فيها نفسى ونسيت أيضا أننى فى السودان، والتى قمت فى نهايتها منزعجا أجرى كالمجنون لألحق الاتوبيس الى الجيزة لأننى تأخرت على العيال.. احساس غريب لم يخالجنى قط فى أى مكان آخر... ظننت أننى فى مصر وعلى رصيف قهوة الازاز فى السيدة زينب، فقمت أجرى لأركب الاتوبيس الى الجيزة!

وشلة شرفة الجرائد أوتيل على النيل الازرق الغاضب الثائر الجارف كأنه سيل

انطلق فجأة وسيجتاح كل شئ! على ابراهيم المحامى ومحجوب رئيس الوزراء وعفيفى الصحفى وشلة شباب من الجيل الثائر العظيم، والمجرن وقهوة محمد حسن الذى كان يحكم مصر ذات يوم قريب، وحديقة الحيوانات التى ليس فيها من الحيوانات الا النادر القليل، وأم درمان الحية المشعللة الساهرة دوما الى الفجر.... وما أحلى وأندى الفجر فى الخرطوم !..

أنا ذات يوم لابد أعود الى السودان لأتمرغ فى ترابها وأتنفس هواءها وأعيش مع الناس فى أفراحها، وأهيم معهم على شاطئ النيل الابيض اصطاد العجلة، وعلى شاطئ النيل الازرق عند الكدرو أصطاد التمساح اللئيم!

ولكن الصورة التى لا تبارح خيالى صورة فرح فى أم درمان ورقصة الرقبة تؤديها العروسة وهى محملة بطن كامل من الذهب والمصاغ.. والبنت العروسة رشيقة كما غزال وعفية كما محمد على كلاى، وراقصة ولا نجوى فؤاد، وهى لا ترقص ولكن رقبتها فقط هى التى تتلوى كما تعبان طريشة فى رمل الواحات!..

والعريس يدور حولها معجب ومبسوط وفرحان وآخر انشكاع!.. وفجأة تسقط العروسة على الأرض ويصفق الناس.. قد انتصرت البنت الشقية على العريس، وفى السودان جمال ولا جمال أوروبا، تقاطيع عربية وسمار كما الخروب، وقوام ولا المانيكان، وأدب ولا أدب اللوردات! والحب فى السودان هامس ليس له صوت ولكن له حفيف، والناس جميعا آخر ود وآخر محبة ولذلك تمنيت على الله ألا يحرمنى لذة اللقاء بالشعب الشقيق..

انا باختصار يا سادة يا كرام أحس حنينا عظيما نحو افريكيا، عربية وزنجية، كلنا افريكان، وكلنا ابناء قارة لها قضية.. وأتمنى على الله أن تتحقق أحلام الفتى الغانى المتحمس، فيقوم قطار سريع من القاهرة الى رأس الرجاء الصالح، ويصبح لافريكا عملة واحدة، وعلم واحد، ونشيد يتغنى به جميع الافريكان، وعندئذ سأركب القطار من محطة مصر وأدلدل رجلى وأكعب سيجارة بلمونت حلوة واخطف ليلة فى الخرطوم وليلة فى أديس ابابا وليلة فى دار السلام، وليلة فى برازافيل ، حتى أصل إلى رأس الرجاء الصالح.. ثم أعود على نفس الخط من جديد..

المندكــورو فى الخــرطـوم

وأصل المندكورو ماتوا سمبلة.. اخ سورى اكوانى. والمندكورو ـ ولا مؤاخذة ـ هم أهل الشمال. أهل الخرطوم وسواكن وعطبرة وكل مكان وأى مكان ليس فى الجنوب. وهذه العبارة نفسها قرأتها أنا فى قصة قصيرة وفى مجموعة سودانية منذ أعوام بقلم صلاح أحمد وزميله على الملك.

واعجبتنى العبارة جدا وأخذت أرددها كالذى عنده طوفة بعيد عنكم ولم افهم معناها بالضبط إلا عندما طرت الى السودان وجلست مع المؤلف فى شرفة الجراند اوتيل، وهى لوكاندة ـ بلا قافية ـ الخالق الناطق لوكاندة شبرد القديمة، وانا رأيت لوكاندة شبرد القديمة وجلست هناك متلفتا كنشال مذعور من عسكرى دريسة، وكانت المناسبة ان واحد بيه من بتوع الصعيد، وهو بيه رسمى وأخوه باشا رسمى واخته هانم رسمى، وكان ـ يا ولداه ـ يملك من الفدادين الفين، ومن النسوان اربع، ومن الشهادات إثتنين. شهادة الميلاد وشهادة لا اله إلا الله، وكانت مواهبه عديدة، أهمها ساعة جيب ذهب بسلسلة من البلاتين وجزمة برقبة اجلسيه آخر طراوة وآخر انبهار.

ويبدو أنه كان قد زهق من الويسكى والقعدات الطرية والنسوان المستوية فقرر أن يصنع شيئا جديدا، اصدار مجلة اسبوعية اجتماعية سياسية مهلبية يا!..

المهم اخونا اياه وقع على حفنة صحفيين من قهوة الصحفيين العاطلين. واقترح اسم المجلة (الحق) كأنه كان سيقول الحق فعلا، وكلفنا بعمل الماكيت والرسوم والكلام، واشتغلنا نحن فعلا، وسهرنا الليالى طلبا للمعالى... ويا ميت ندامة يا جدعان على اللى حب ولا طالشى على رأى الفيلسوف والعالم والمفكر سيد مخلوف شفاه الله!

وذهبنا جميعا بربطة المعلم الى شبرد، فقد كان البيه صاحب مجلة «الحق» يحب الحق ويحب الويسكى فى شرفة شبرد...

ودخلنا كما متهمين من شلشلمون داخلين دوار حضرة العمدة، وكان البيه ما أحلاه يجلس وسط شلة، ومع الشلة ستات حلوات مقلوظات ضاحكات... يبدو أن مجلة «الحق» كانت تصدر من أجل الدفاع عن هذه القضية، ما هى القضية ؟ لا أعرف.

□□□

ولكن لماذا كل هذه الاردغانة؟ وماهى المناسبة؟ آه، فندق شبرد وفندق الجراند اوتيل فى الخرطوم، وكان الخالق الناطق شبهه، ولعلنى تذكرت القصة وأنا جالس مع المؤلف يشرح لى عبارة والمندكورو ماتوا سمبلة... والمندكورو هم اهل الشمال، وماتوا، ماتوا طبعا الى رحمة الله، وسمبلة. يعنى ماتوا بكش. ماتوا أونطة ولكن رغم ذلك لم يهتف أحد هاتوا فلوسنا!

وآخ، يعنى اخ يانا، أو آخ يا عينى... أو آخ يا مصارينى، وهى من باب التوجع والتفجع والصوات على الشئ الذى تبكى عليه... وسورى بمعنى آسف، أو يا اسفى وهى كلمة انجليزى محط، ومحط هذه كلمة جديدة أهديها الى المجمع اللغوى وحقوق الاختراع محفوظة للعبد لله!

واكوانى يعنى اخوانى، واللغة على بعضها هى لغة اهل الجنوب فى السودان، واعجبتنى جدا كلمة مندكورو، وبما أن معناها اهل الشمال، فانا فى الخرطوم اذن مندكورو . لأننى من الجيزة والجيزة شمال الخرطوم، وان جالس فى الجراند اوتيل على شاطئ النيل الازرق، ولابس الجلباب تمام، والمركوب تمام وهاندا فى الخرطوم وياميت حلاوة على دى بلد.

والجو فى اغسطس بارد وممطر هسه..وهسه كلمة سودانية عربية، بمعنى

هذه الساعة ولكن اختصارا للوقت واقتصادا للنفقات... اختزلها أهل الخرطوم فأصبحت هسة... ويا هسة جانا الحبايب واحنا لم هسة، وهسة الاخيرة كلمة بلدى بمعنى حسه، يعنى لم نشعر، لم نحس! وهو مطلع اغنية جارى تأليفها الآن للمطرب شفيق جلال.

وها هو الجراند اوتيل هنا وكل السودان هنا أيضا، حلاوة السودان ان فى الجراند اوتيل تجد رئيس الوزراء وتجد الصايع والضايع مثلى ولا مؤاخذة. محجوب مع شلة فى الركن، واحمد زين وزير العدل مع شلة فى الركن الآخر. وشلة عرب فى الوسط، فى الشلة احمد الخواجا من مصر، وشفيق ارشيدات من الاردن، والوقواق من الجزائر، والشيخ مهدى الفنان ابن الضايعة، الذى تجرى فى عروقه دماء حجاوية، نسبة الى زكريا الحجاوى... والذى يحب الليل والناس والرصيف... ولكن يا حسرة قلبى ليس فى الخرطوم رصيف واحد يصلح لجلوس الفنانين والمتشردين الا رصيف الجراند اوتيل، وياما انا جلست على هذا الرصيف ليالى طويلة مع يوسف عباس مدير الفندق انا أنظر للنيل وهو ينظر للفندق... وكأن الفندق عهدة وهو مسئول عن كل حلوبة فيه.

وعندما اشتقت جدا لأرصفة القاهرة سحبت احمد عبد الحليم من ايده وجلست على رصيف النيل الأزرق ندردش بالساعات والدنيا ليل، والنيل آخر فيضان والميه وأهل الخرطوم ينطقونها المويه ـ آخر حمار وآخر حلاوة ولا البطيخ الشيليان، والتماسيح فى ألنيل الأزرق تتلعبط وهذا اوانها!..

فعند الفيضان يسبح التمساح او يهان... وبما ان التمساح فى الفيضان لا يستطيع ان يسبح، فهو حتما سيهان! التيار يجرفه والأمواج تحدفه، وهو وحظه. يصعد على جزيرة توتى، او يصعد فى الكدرو، المهم هو منهان منهان، لأنه يظل على الشاطئ حتى ينتهى الفيضان، ونهار ابوه ازرق إذا وقع فيه صياد. إذ شافه عسكرى حكومة، اذا طال الفيضان ولم يجد شيئا يأكله فهو ميت من ظهر أموات.

ولكن لماذا شاطئ النهر صامت وحزين كما واحدة ست مات جوزها فى

مديرية أعالى النيل... لماذا الشاطئ لا شمعة والعة ولا كرسى محطوط ولا ترابيزة مرصوصة. مع أن الشاطئ فى الخرطوم اجمل الف مرة من شاطئ السين فى باريس، واجمل مليون مرة من شاطئ التاميز فى لندن، لماذا والسودانيون أهل لطافة واهل ذوق... لماذا لا يتقدم واحد ويرص كام كرسى ويشعل لمبة ويدعو أهل الليل إلى السهر والكلام وأنا ضامن له المكسب والفلوس الكتير.. لماذا ولا واحد بتاع ساندويتشات واقف على النيل يبيع للناس ساعة العصارى وفى المغربية؟ لماذا ولا واحد بتاع ترمس.. ولا واحد بتاع أى حاجة واقف هناك؟..

أنا كان نفسى أروح الخرطوم فأرى الشاطئ يشغى بالناس، أرى العيال فرحانة بالنيل تجرى على الشاطئين، أرى البنات فى السودان بالتوب السودانى يتمخطرن على الضفاف، إلى متى يظل الناس فُى بلادنا الفتية تعبانة وغلبانة وكل خيرات الله وجنات الله وانهار الله تجرى تحت رجليهم؟! أنا شعرت بالجوع مرة فى منتصف الليل، واشتقت إلى التهام ساندويتش أو سانكويتش كما كان يقول العسكرى الجارحى خفير مخبأ الجيزة الشهير! وركبت مع الواد عبد الحميد عبدالرحمن سيارته وطفنا الخرطوم كلها بحثا عن محل واحد فاتح فلم نجد أحدا ولم نجد شيئا، مع أن أهل الخرطوم ليس مثلهم يتذوق الليل ويتذوق النجوم السهرانة على كورنيش النيل!!..

وأنا والشيخ مهدى سهرنا مرة وصهللنا وقلت للشيخ مهدى نفسك فى ايه، وقال الشيخ مهدى الخبير ابن الناصحة قطعة كنافة أو حتة بسبوسة عشان خاطر النبى والصحابة والأولياء.. ولكن حفيت أقدامنا ولم نعثر على شئ، مع أن فى السودان أحسن كنافة والذ بقلاوة وأجدع حلاوة.. ولكن بالنهار! حكمة الله أن الناس فى السودان أعظم الناس، والاخلاق أعظم الأخلاق، والشهامة أعظم الشهامة... والرجولة أعظم الرجولة، ولكن الجو العام ليس مثل الناس، الفرق رهيب وغريب ولابد له من علاج.

الحجاب مثلا على الوجوه والحب ما أحلاه فى السودان، وتسأل أى سودانى فيقول لك الحقيقة ثم يضرب كفا بكف ويقول سبحان الله!

من المسئول اذن، مادامت الناس راضية، وما دام على رأس الحكومة محجوب الفنان، ومادام الجميع مصرين ومتفقين على تقدم السودان؟ أنا سألت بنت سفروته كالقشاط، مثقفة مثل لويس عوض، ناصحة مثل العبد لله، دمها خفيف مثل الولد المضروب صلاح، أخو حضرتنا، شقية مثل الولد اكرم ابن حضرتنا، باعتبار انه واجب علينا ذكر العائلة كلها فى هذا الكتاب:

أنا سألت البنت الشقية السفروتة الناصحة وعندها من السن عشرين فقالت بصراحة نعم انا عندى تجارب كأى بنت فى أى مكان..

ولكـــــن ...

□□□

وتوتى توتى... وما خلصت الحدوتى

وميت عفارم على السودانى الطيب ابن الناس الطيبين، يجلس معك فيسألك كل لحظة عن الصحة والأحوال، ويسهر معك فيضحك لكل كلمة ويفرح لكل اشارة ويعامل كل واحد فى الجلسة على أنه ظريف ولا حضرتنا خفيف ولا أبو لمعة.

وفى أيام الصفاء يبيع السودانى الطيب ابن الناس الطيبين متاعه من اجلك. وفى أيام الحرب يخلع السودانى الطيب ابن الناس الطيبين جلبابه ويسبقك للجبهة... ولكن السودانى الظريف الطيب ابن الناس الطيبين حساس للغاية وقد يغضب لأقل اساءة توجه اليه، ولذلك أنصحك يا عبد الله ان تكون حريصا غاية الحرص وانت تتعامل مع السودانى وأنت فاهم لهذه الحقيقة، لأن أى غلطة أو أى هفوة قد تؤدى إلى ما لا يحمد عقباه! أنا مثلا اعتقد أن مواعيدى مثل نشرات مصلحة الأرصاد، قد أصدق فيها وقد لا أصدق. وما دمت مثل مصلحة الأرصاد فأنا لا أخاف لأن أحدا لن يحاسبنى، وأنا أطلب من الآخرين عدم الخوف لأنى لن أحاسب أحدا. والسودانى أيضا مثلى ومثل مصلحة الأرصاد، ولكن يا للعجب لا يخاف إذا ضرب لك موعدا وتأخر، ويخفيك إذا ضرب لك موعدا وتأخرت.. لذلك يجب عليك الذهاب فى المكان والزمان المحدد لأن السودانى الطيب قد يحضر وأيضا قد لا يحضر.. فإذا حضر وحضرت فيا اهلا وسهلا، واذا حضرت ولم يحضر فلا بأس وكل شئ يذهب له تعويض، واذا حضر ولم تحضر فيا واقعة سودة، سيغضب السودانى ولن تستطيع أن تتصالح معه!! أنا كان معى موعد مع سيدة فاضلة من طليعة الحركة النسائية فى السودان اسمها خ . ص .. موعد العشاء.. فى منزلها العامر..

العامر دائما.. بالضيوف والموائد والخيرات. وفى ذات اليوم كانت السودان كلها تغلى، مظاهرات فى الشوارع ، مظاهرات فى الضواحى، مظاهرات فى

الاذاعة. والسودان كله يجلس على بركان. وبالطبع انتظرت وبالطبع لم تحضر. والتقينا بعد ذلك وحددنا موعدا آخر، وكان الموعد فى الثامنة وانتظرت حتى الثامنة والنصف ولم تحضر. والتقيت فجأة بالملحق الصحفى حسنى عبد الوهاب فدعانى على العشاء. وذهبت معه الى قرية ما أحلاها.. قرية الكدرو التى التماسيح فيها تلعب فى الموية كما البط فى ترعة بلدنا. وسهرنا وانبسطنا وانشكعنا وكانت سهرة ولا كل السهرات. ثم التقيت بالسيدة خديجة بعد ذلك فى القاهرة فاذا بها زعلانة؟.. ليه؟ لأننى لم انتظرها فى الموعد! أنا الذى انصرفت فى الثامنة والنصف والموعد كان فى الثامنة، وهى حضرت فى التاسعة، ولكن الواجب كان يقتضينى أن انتظر ولا ابرح مكانى حتى تشرق الشمس، ومن يومها وهى زعلانة.. مع اننى لست زعلان!

ومرة ولد صاحبى اسمه ادوارد فى مطار الخرطوم عزمنى على خروف مشوى... ومن يومها وانا ضعيف وأصفر ومعلول وحالى عدم لأن الخروف تكررت عزمته أكثر من مرة وانتظارى طال له فى شرفة الجراند اوتيل!

ولكن هل السودانى بخيل؟ اعوذ بالله! السودانى هو اكرم عربى. فكيف يكون حاله اذا علمت ان العربى هو اكرم الناس! أنا استطيع أن أعيش عمرى كله فى السودان بلا شغلة ولا مشغلة وانا ضامن أكلى وشربى ولبسى وسهرى وكل شئ ومادام الناس أحبوك فلك «روحى ونفسى وماليا» على رأى عمنا الشاعر المتنبى طيب الله ثراه، أنا كنت فى لندن والبنت هالة فى المستشفى يخلع الطبيب لها عظام الحوض. وتلقت هالة عشرين هدية أكثرها من ناس من السودان كانوا ايضا فى لندن. ناس لا أعرفهم ولا يعرفون العبد لله. مجرد صلة، صلة بين قارئ وكاتب، وصلة على البعد ولكنها عند السودانى الطيب اعمق من كل شئ وأبقى من كل شئ. واحتجت فى لندن الى فلوس وكدت أرفع يافطة واقف فى ميدان البيكاديلى وأزعق بالصوت الحيانى عشا الصحافة عليك يا كريم. إلهى يحنن عليك يا جورج يا ابن جونيا وآشلى ياللى تقول خد شلن لله. وفجأة وأنا فى عز الازمة ضرب تليفون فى الحجرة وقال المتحدث... محمود السعدنى؟ قلت: آه...

قـال بدون كـلام ولا سـلام: يلعن.. وأدركت من خـلال الكلام المهـذب الرقـيق انه صديق وانه صديق عزيز ولكن لم أتبين من هو على وجه التحديد، فقلت مبتهجا يا أهلا وسـهلا، قـال: أنت فين يا، قلت: أنا تحت امرك مـوجـود الآن وكل آن. خدام رجليك تحضـر إلينا أو أحـضـر اليك. قـال أين العنوان؟ قلت: شـارع كيت.. رقم كيت.. وجـاء الضيف الكريم واكتشفت انه محمد أحـمـد مـحـجـوب رئيس وزراء السودان. وبما أن محجوب طويل كما شجرة الابنوس رقيق كما العاج رشيق كما لاعب الباسكت بول. وبما أن العبـد لله قـصـير كـما شـجرة مـوز، نحيف كما سيجارة هوليوود.. فقد تشعبطت على رقبته وهات يابوس وهات يا أحضان وهات يا سـلامات ويا اهـلا وسـهـلا. ولم يكن مـحـجـوب وقـتـئـذ رئيسـا للوزراء ولم يكن وزيرا. كـان يشـتـغل بالمحـامـاة وكـان فى لندن هو الآخـر للعـلاج، وقـبـل أن يجلس مـحـجـوب او يلتقط انفاسه قال: اسمع، أنا حضرت للعلاج لمدة شهر ومعى ما يكفـينى من النقـود. وأنا استطيع أن أقضى هنا اسبوعين بدلا من شـهـر، ثلاثة اسـابيع كفاية وأكثر من كفاية، واستطيع أيضا أن أقطع رحلتى الآن وأعود الى السودان. قلت: ولكن ليه؟ قال: أنا علمت أن بنتك هالة فى المستشفى وإنك تعانى من الفلس العظيم وانك فى حـاجـة الى نقـود، فـخـذ النقـود التى مـعـى وأنا سأتصرف، وبكيت يومها كما لم أبك من قبل. وقلت لمحجوب لو حضرت قبل الآن بيوم واحد لأخذت كل ما معك. ولكن الله كريم ويحب كل كريم فك الازمة وانتهى الموضوع. ولم يتركنى محجوب حتى رأى كل الفلوس التى معى. وقضى معنا فى لندن أياما هى أحلى أيام العمر! أنا مـثلا كنت واقفا فى ردهة فندق السـودان أتحدث مع أحمد حمروش عن الدوسنطاريا اللعينة التى هاجمتنى فجأة وانشبت أظافرها فى مصارين العبد لله. مجرد شكوى أنا أرددها دوما كلما احسست بمصارينى تكركب وبطنى تلعب والعياذ بالله. وبعد عشر دقائق كان أخ سودانى ظريف يتقدم نحوى ومعه ربطة من جميع الأدوية التى خلقت للدوسنطاريا من أول الانتوسيد إلى الترامايسين ولم يكن بيننا سابق معرفة ولم تكن هناك علاقة. هو سمعنى فقط أشكو فطار إلى الأجزاخانة وكان ما كان. واكتشفت أن اسمه

عبدالحميد عبدالرحمن وانه صاحب أجزاخانة وانه مدمن على قراءة صباح الخير وأن كل المحاولات التى بذلت معه قد فشلت، ولذلك قرر أن يسافر الى بلاد بره لعله يجد مصحة تشفيه من صباح الخير.. وأنا مرة طلبت ذيل تمساح كان الممثل الضخم محمد رضا، الضخم حجما ومقاما قد طلبه منى، وفى الصباح كان اخ سودانى طيب يحمل على ظهره تمساح كامل يتلعبط وتركه فى غرفتى باللوكانده. انا أقول هذا الكلام ليه؟ لأثبت لكم أن السودانى أكرم عربى والعرب أكرم الناس. ولكن الولد ادوار خيبه الله يضرب مواعيد وينساها ليس من باب البخل، ولكن من باب الهزار! وعندما نزلت الخرطوم هذه المرة كان ادوار هو أول من التقيت به فى المطار فهتف شديد الفرحة، سعدنى قلت: اهلا ادوار. قال: أنا عازمك فقلت على الفور، على خروف مشوى بالزبيب، قال: خيبك الله، قلت: ولكن هذه الاسطوانة أنا حفظتها والخرفان المشوية المزعومة اجهدت معدتى، أرجوك يا عم ادوار تعزمنى على شئ آخر مختلف. قال وهو كذلك. فلتكن العزومة على خروف مشوى بدون زبيب!! وادوار سودانى من أصل مصرى جده ذهب الى السودان منذ مائة عام، وما أكثر السودانيين الذين من أصل مصرى هناك. وأنا أقطع ان فى السودان سرا يشدك الى جوها ويقيدك فلا تستطيع الفكاك. انا عرفت واحد اسمه عم احمد تاجر ونزهى. أى أنه فاتح تجارة فى الخرطوم، ولكنه لا يعمل بالتجارة، ولكنه يعمل بالنزاهة. فهو يعمل بحكمة فهد بلان «حنا للخيل والليل..» وهو كلام هايف وان كان صوت الواد فهد كما صوت الفهد الحقيقى فى الغابة خلال الليل. عمنا احمد مصرى له فى السودان ربع قرن. وهو كان موظفا فى الرى ثم استقال وتزوج من السودان وعاش فى الخرطوم يشتغل تاجر ونزهى. وفى كل عام هو مسافر الى القاهرة ليستقر هناك، ربع قرن الآن وهو مسافر كل عام ولكن لم يسافر قط، واراهن انه لن يسافر على الاطلاق، عم أحمد الذى اقترب الآن من الستين والذى يتمتع بحيوية شاب فى الخامسة والثلاثين، والذى كل اصحابه من شباب السودان، والذى حنا للخيل والليل ياويل ياويل ياويل، أقصد ياويل الذين يسهرون معه، لأنه مثل عمنا كامل الشناوى رحمه الله، لا

يعتقد ان الصباح قد جاء إلا إذا توسطت الشمس كبد السماء على رأى الشيخ طاهر رحمه الله! ولقد سهرت معه مرتين ثم اعتزلت. لم تستطع صحة حضرتنا مواصلة السهر الطويل الذى تعود عليه عم أحمد منذ عشرات السنين. ولقد حكى الرجل قصته فى السهرة الأخيرة وكيف أنه عاش فى سيدنا الحسين ولا يزال يذكر كل شئ هناك المالكى بتاع اللبن وابو حجر بتاع الفول والفيشاوى بتاع القهوة وحتى عم على المجذوب الذى يصرخ فى الليل كأنه عرسة هاجمها كلب صايع مسعور. وعندما جاء الى السودان أول مرة كان شديد البؤس كأنه ذاهب إلى اليمان. وفى القطار إلى الشلال وفى المركب إلى الشجرة فى الخرطوم فكر الف مرة فى أن يهرب بجلده ولكنه لم يفعل. وعام كامل فى الخرطوم وموقفه لم يتغير، كل صباح ينزع ورقة من النتيجة ليعرف كم يوما مضى على وجوده فى السودان؟ وكم يوما سيبقى فيه؟ وفى كل لحظة ينظر فى ساعته ليرى كم لحظة مضت وكم لحظة بقيت له هناك..

وخلال ذلك العام الذى قضاه هناك راحت قدمه تغوص شيئا فشيئا فى قلب السودان. أصبح له أصدقاء وأصبح له معارف وأصبحت له قعدات!.. وكما يحدث فى المسرح لم يكن عم أحمد يعلم أن قدمه تغوص وأنه غاص أكثر من اللازم، وأنه أصبح جزءا لا يتجزأ من السودان، فقد أصبحت له زوجة، تعيش فى الخرطوم وأصلها من عطبرة. وانتهى العام. وحزم عم أحمد امتعته واستعد للرحيل، وفى طريقه إلى مكتب القطارات والمراكب والسيارات زينة ويخلق ما لا تعلمون. صادف فى طريقه فيللا معروضة للايجار فى شارع عريض وجميل فدخل على الفور ودفع الفلوس وأصبحت الفيللا من نصيبه. وعاد إلى مصر ولكن فى أجازة، ولم يمض شهر حتى شد الرحال من جديد إلى السودان، وفى كل عام كان ينوى الهجرة، وفى كل عام كان يقضى أجازة فى القاهرة ثم يعود إلى السودان.

ومضت عليه سنوات طويلة، وترك وظيفته فى الرى، وافتتح محلا للتجارة ولا يزال يعيش فى الخرطوم، وأغلب الظن أنه سيدفن فى الخرطوم بعد عمر طويل

وفى آخر ليلة سهرت مع عم أحمد فى منزل صديق، همس فى أذنى وأنا أصافحه ونسمات الفجر الطرية تهب علينا وقال سألقاك فى مصر قريبا، حاول أن تستأجر لى شقة خالية لأقيم فيها فقد قررت الهجرة نهائيا إلى القاهرة. وبالطبع لم استأجر له شقة ولم أكلف نفسى حتى عناء البحث عن هذه الشقة! لأننى أعلم أنه سيكون واجبا على بعد عمر طويل، لو سافرت إلى الخرطوم. سيكون من واجبى ان أبحث عن القبر الذى يضم رفات عم أحمد لأضع عليه وردة بلدى حمراء. فما أكثر شغفه بهذا النوع من الورود.

رجل آخر التقيت به مصادفة، فى رحلة خاطفة قمت بها إلى جبل الأولياء. رجل من سلالة المصريين الذين دخلوا السودان منذ زمن بعيد، وهو لم ير القاهرة أبدا، ولم يغادر جبل الأولياء إلا إلى الخرطوم، ومع ذلك جلس معى ساعة على شاطئ النيل الأبيض يتحدث عن قرية جده الشهداء منوفية، وعن عائلته التى تعيش على حرف الترعة. ولكن الغريب فى الأمر أنه لم يقطع الصلة أبدا بمسقط رأسه، جده وأبوه وهو نفسه تزوج من بنت فلاحة من الشهداء!

أريد أن أحذركم أيها الخلان من السودان أنها تسحبك دون أن تدرى، وقد تلعنها باللسان ولكن قلبك يظل يحبها حتى يتوقف عن الخفقان.

إنى أعرف ولدا اسمه على عزت.. طويل كما دولاب، عريض الأكتاف كما بطل أجسام وهو فى الأصل رياضى، يقفز فوق، ويجلس تحت ويفرد ذراعيه، ويشفط أنفاسا عميقة عمق البحار. الولد على عزت كان مدرس رياضة وكانت له فى السودان علاقات واسعة، وكان فى الخرطوم أشهر من كوبرى الجلاء فى القاهرة.. وأنا نفسى تنفتح لأى مصرى فى الخارج يجرى بين الناس ونفسى تنفتح لأى مصرى م الخارج يرفع شعار العلاقات الطيبة مع الناس أبقى.. نعم أبقى من تدريس النحو وتلقين العيال ألفية ابن مالك وأنا أعرف مدرسين فى الخارج من ماركة ساندويتش الجرجير، يفر من الناس كأنهم وحوش، ويفر منه

الناس كأنه مصاب بالجزام ومن المدرسة إلى العشة، ومن العشة إلى المدرسة، ويحسب أن هذا غاية المرام من رب العباد. وأنا أعرف مدرسين فى الخارج جلبوا لنا المصائب والكوارث لأنهم خرجوا من هنا بعقلية شلشلمون مركز منوف. والقرش الابيض ينفع فى اليوم الأسود، ودبق يا عبد الله ومعاك الله! والهدف فى النهاية قيراطين على ترعة جنزور. وفى سبيل هذين القيراطين يضرب بتاع القوطة بالراس من أجل نص فرنك وينام على الأسفلت فى قسم البوليس من أجل خلاف على ايجار العشة، حتى رجال السلك السياسى المصرى فى الخارج لا يعرفون بالضبط ماذا يفعلون!! فى بلد مثل لندن مثلا أنا محتاج لسفير محنك فى السياسة خبير فى الاتيكيت، ولكن فى بلد مثل الخرطوم مثلا انا محتاج لولد فهلوى ابن بلد يعرف كيف يكسب قلوب الناس ولكن للأسف الشديد، حتى الولد الفهلوى ابن البلد عندما يرتدى بدلة السلك السياسى يصبح من السلك، والكلام يصبح من طرطوفة اللسان، والحديث من القفا، والنظرات ولا نظرات ممثل فى أفلام الشجعان.. فى بلد كالسودان مثلا نماذج حلوة فى السلك السياسى المصرى، نموذج واحد وربما اثنين، والباقون جميعا سهراتهم مع بعض، جلساتهم مع بعض، اجتماعاتهم مع بعض، ونادرا مانجد سودانى بين هؤلاء المصريين. وهو عتاب ردده عم شبلى نقيب المحامين. ورردده آخرون ولهم حق. ويا سيدى فى السودان نحب الراجل المفتوح... هذا رأيهم وأنا معهم المهم على عزت ليس من هذا الطراز، الولد الرياضى الطويل المشوق القوام وكل الخرطوم تعرفه وله عربية مرسيدس كانت فى الأصل قارب صيد على شواطئ منوف. فجأة نقلوه من السودان بعد سبعة أعوام، والولد زعلان وأهل الخرطوم فى غاية الزعل مـ فيش كلام، وأنا أيضا زعلان من أجل على عزت، ومن أجل الناس فى الخرطوم

رجل آخر شيخ مسجد الشجرة، لا تجلس فى مكان الا ويسألك الناس عن هذا الشيخ... ويا ميت خسارة.

لأنى نسيت اسمه، ولكن الرجل كان محبوبا وله فى السودان أتباع ومريدين

وهو رجل شيخ وظريف ويعرف كلام الله ويعرف كلام الناس، وعاش فى السودان زمنا طويلا حتى صار واحدا منهم، ثم فجأة نقلوه، وبعثوا بشيخ آخر يفهم فى كيفية الوضوء، وفرائض الصلاة، والصوم والحج لمن استطاع اليه سبيلا، ولكن الرجل الشـيخ الطيب الذى يفهم كل شئ فى الدين لم يكن يفهم كل شئ فى الدنيا، فأغلق باب الجامع على نفسه واستقر فى أمان الله، والناس فى الخرطوم لا تزال تذكر الشيخ الطيب الذى ذهب وتصرخ عليه .

□□□

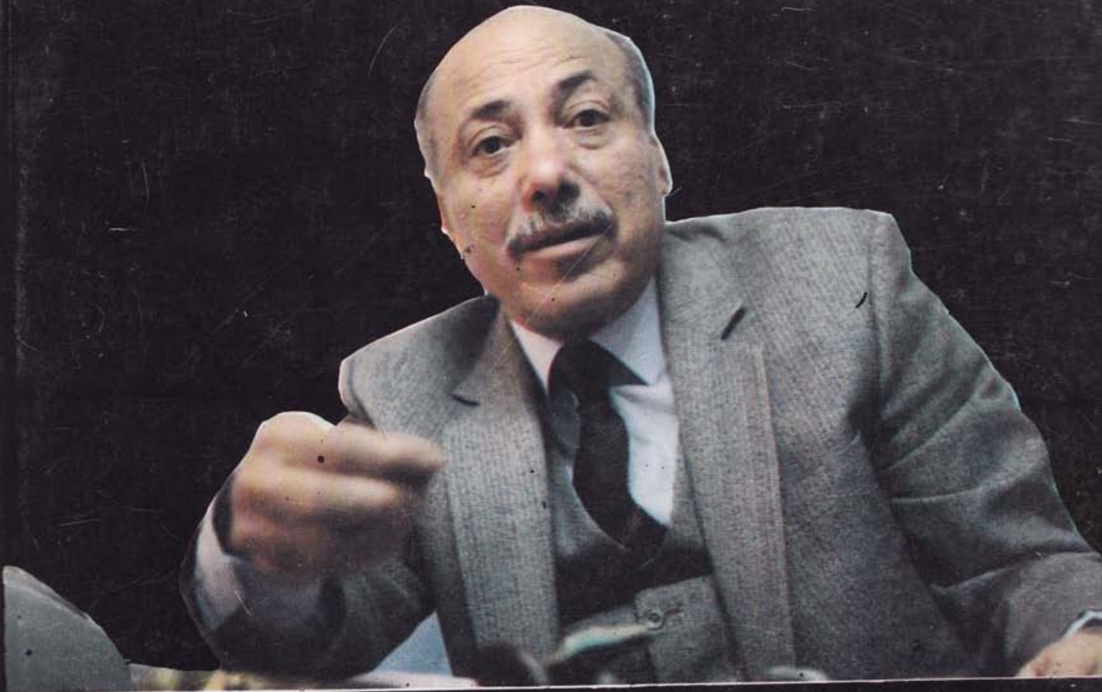
فهـــرست

الموضـــوع	الصفحـــة
السعلوكى.. والصعلوكى	٣
السعلوكى فى بلاد الافريكى	١١
عبيد ليفربول.. أكثر سوادا	١٩
.. والجدعنة انهزمت يا ولداه	٢٩
أميرة.. ولكن فى المنام	٥١
الفنان والعبيط والشيخ على فى أفريكيا	٥٩
يا جيش النمل.. مليون سلامة	٦٧
دخانيق.. وسراديب.. وبؤر	٧٧
الجنة.. ومبرات.. والست أبابا	٨٧
الغروب.. وبعد الغروب	٩٧
يا حضرات الكويرة.. ويل لكم من أفريقيا	١٠٩
وداعا.. بهجتى.. عمتى.. أفريقيا	١١٧
المندكورو فى الخرطوم	١٢٣
وتوتى توتى.. وما خلصت الحدوتى	

رقم الايداع : ١٧٩٨ / ٩٣

I.S.B.N

777 - 07 - 0240 - 4



محمـــود الســـعدنى

- له ثلاثون كتابا طبع بعضها أكثر من عشر طبعات .
- أشهر كتبه سلسلة الولد الشقى ، ومصر من تانى ، وحمار من الشرق ، ومسافر على الرصيف ، والموكوس فى بلاد الفلوس ، والسعلوكى فى بلاد الأفريكى ، وأمريكا يا ويكا .
- أول كتاب صدر له (السماء السوداء) وأحدث كتاب (الطريق إلى زمن - تحت الطبع)
- بيعت ستون ألف نسخة فى شهر من كتاب مصر من تانى ، وباع كتاب حمار من الشرق سبعين ألف نسخة فى نفس المدة .
- كتب خمس مسرحيات وثلاث مسلسلات للتليفزيون وسبع مسلسلات للأذاعة فى الستينات .
- كتب أربع روايات (حتى يعود القمر) عام ١٩٦١ ، (الأرزقية) عام ١٩٦٤ (الشيخ لعبوط) عام ١٩٦٦ ، (الفضية) عام ١٩٩١
- متزوج وله خمسة أبناء وثلاثة أحفاد ، وطاف بجميع أرجاء المعمورة ما عدا استراليا وأمريكا اللاتينية

الثمن ٣٠٠ قرش